

من قلم

خليل السكاكيني

سنة

١٩٢٥





من قلم

خليل السكاكيني

سنة

١٩٢٥

ايها القارئ الكريم

عرضت كتابي هذا قبل طبعهِ على صديقين من اهل العلم والفضل . اما الاول فتضجر منه خروجي في مواضع كثيرة منه عن المألوف ، واما الثاني فتفضل باستحسان ما رأى فيه من اثر الاجتهاد على ضعفه ، وشجعني على طبعهِ . اذا كنت من رأي الاول فارجو عفوك واذا كنت من رأي الثاني فأشكرك

خليل السكاكيني

ادلة البيان في اللغة العربية [1]

من تدبر العلوم اللسانية في اللغة العربية كالصرف والنحو رأى انه قد مر بها حتى الآن ثلاثة ادوار : الاول دور الاستقراء والتطبيق استخرج النحاة الاولون فيه الجزئيات من الكليات ثم طبقوا الكليات على الجزئيات طرداً وعكساً مثال ذلك : استقرى النحاة الفاعل في جمل كثيرة فقالوا الفاعل مرفوع ثم قالوا ان لفظة « رجل » في قولنا جاء الرجل مثلًا مرفوع لانه فاعل . الدور الثاني دور التبويب والترتيب، كان هم كل مؤلف في هذا الدور تتبع الاحكام الكلية في مظانها وترتيبها في فصول وابواب اشبه بالفهارس ضموا فيه النظير الى نظيره والفرع الى اصله، ولكن لم يجئ احد منهم بشيء جديد من عنده، بل اقتصروا على مذاهب البصريين والكوفيين وذكر الراجح والمرجوح منها بلا بحث ولا نكير . الدور الثالث دور الاجتهاد حاول بعض المؤلفين فيه ان يخرجوا من عهدة ذلك التقليد بان يذكروا هنا وهناك بعض آراء لم يسبقهم اليها احد ففتحوا بذلك باب الاجتهاد.. ولاشك اننا اصبحنا اليوم في زمان لابد فيه من اعادة النظر في كل

---

(١) محاضرة القيت فى الجامعة المصرية في شهر ديسمبر من سنة ١٩٢٠ ونشرت في المقتطف في الجزء الثاني من المجلد الثامن والخمسين سنة ١٩٢١

ماوضعه الاولون وتسلمناه منهم قضايا مقررة لاتقبل الاعتراض ، وبناء ذلك على مبادئ جديدة علمية ، فان عندنا من الوسائل ما لم يكن عند هم .. كان علماء اللغة في قديم الزمان لايعرفون غير اللغة العربيه ولم يكونوا يعرفون مايسمى اليوم بعلم مقابلة اللغات بعضها ببعض ، اومايسمى علم تحليل اللغات او فلسفتها .. بلى حاول بعضهم التعرض لهذه الابحاث منهم ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي في كتابيه الخصائص في اللغة وسر الصناعة في النحو ، ولكن ابحاثهم كانت في عهد طفوليتها ؛ واما اليوم فقد ارتقت هذه العلوم وصارت خصائص اللغة واسرارها علماً بأصول ، واصبح عالم اللغة لا غنى له عن تعلم اخوات تلك اللغة بل لغات أُخرى عديدة قديمة وجديدة . وقد عرفت في بلاد الانكليز واميركا اساتذة كثيرين من علماء اللغات الشرقية يعرف الواحد منهم الى اللغة العربية العبرية والسريانية والحبشية والتركية والفارسية والسنسكريتية فضلاً عن اللغات الاوربية الحديثة والقديمة الى مايجاوز العشر لغات. وقد لقيت في كمبردج شيخاً مصرياً وهو استاذ في احدى المدارس العالية في القطر المصري ، رأى سعة معرفة اولئك الاساتذة وتبحرهم في علم اللغات فقال من قصيدة ارسلها الى احد العلماء في مصر .

انا في بلاد الانكليز	اسير كالطفل الصغير
في كمبردج مدينة العرفان	ليس لها نظير
فيها الاساتذة الفخام	ومن يعادل شكسبير
لا علم لي حتى اجادلهم	ولا عقل كبير
لكنني مسترشدٌ	شأن الضرير مع البصير
ولقد ذكرتك قائلاً	في مصرنا البدر المنير

كل باطراف البنان اليه اجلالا يشير

ولأولئك العلماء الاعلام مؤلفات غزيرة المادة مشبعة الفصول في تاريخ اللغات وفلسفتها ومقابلتها بعضها ببعض . استبطنوا اللغات واستخرجوا منها حقائق بنيت عليها العلوم اللسانية في لغاتهم . و اول من طرق هذه الابحاث الجديدة في اللغة العربية على ما أذكر احمد فارس الشدياق والشيخ ابرهيم اليازجي وجورجي زيدان وروحي الخالدي المقدسي وجبر ضومط وبندلي الجوزي المقدسي وانستاس الكرملي ، ثم انقطع العهد بتلك الابحاث ولم تترتب عليها فائدة عملية ، ولعل لذلك سببين : الاول تراجع النهضة وقلة المشتغلين بها . والثاني عدم الجرأة على ابداء رأي جديد . وقد خطر لي اثناء معالجتي هذه المواضيع من النظرات والخواطر ما اتجرأ على عرضه عليكم شيئاً بعد شيء وانا لا اجهل ان رأس ما لي نزر .. وسأقتصر في حديثي هنا على الكلام عن ادلة البيان التي تتميز بها وظيفة الكلمة في الجملة فاقول :

تعرف وظيفة الكلمة في الجملة اما بالقرينة المعنوية نحو فهم موسى المعنى اوفهم المعنى موسى ، فان الفاهم هو موسى والمفهوم هو المعنى اذ لا يصح غير ذلك . واما بالترتيب نحو سبق اخي غلامي ، ولما كان كل منهما يصح ان يكون سابقاً او مسبوقاً ذكرنا السابق اولا والمسبوق ثانياً لان علاقة الفعل بالفاعل سابقة لعلاقته بالمفعول . واما بالاعراب نحو ضرب زيد عمراً او ضرب عمراً زيد فالضارب هو زيد والمضروب هو عمرو في الجملتين وقد عرفنا ذلك ليس من المعنى لانهُ يصح ان يكون كلاهما ضارباً او مضروباً ، ولا من الترتيب لان كلمة زيد جاءت قبل كلمة عمرو في الجملة الاولى وبعدها في الجملة الثانية ، وانما عرفنا ان زيداً هو

الضارب لانه مرفوع وان عمراً هو المضروب لانه منصوب. فادلة البيان ثلاثة: القرينة والترتيب والاعراب وهذا آخرها وصلت اليهِ اللغة العربية ولابد ان تكون هذه الادلة قد مرت على ادوار مختلفة قبل ان وصلت الى صورتها الحاضرة التي ورثناها من عهد التدوين جرياً على ناموس النشوء والارتقاء كما سنبينهُ فيما يلي:

ـ القرينة ـ

لاشك ان القرينة هي اقدم هذه الادلة ، وقد مر زمان طويل على اللغة كان الاعتماد في بيان المعنى فيها على القرينة وحدها وذلك قبل ان يكون في اللغة ترتيب معلوم او اعراب بياني . فكانوا يقدمون اويؤخرون ، وكانوا يرفعون اوينصبون أو يخفضون او يجزمون او يبنون كما يجيء معهم اتفاقاً لغير قصد . واذ كان اعتمادهم في هذا الدور على القرينة وحدها فلابد انهُ كانت هناك قرائن كثيرة تختلف وضوحاً او خفاء يستدلون بها على المعنى. ولاعتيادهم الاعتماد على القرينة فلابد انهم كانوا يتنبهون لادق القرائن وأخفاها. ومع ذلك فان التفاهم كان صعباً لما يقع فيهِ من اللبس اوالغموض احياناً ، او ان مواضيع الكلام كانت بسيطة يدرك المعنى منها باقل لمحة.. من تلك القرائن طبقة الصوت وهيئة اطلاقهِ بين ان يكون ليناً اوخشناً عالياً اوسافلاً مماهو بالصوت الموسيقي اشبهُ منهُ بالصوت المنطقي كما قال اليازجي ، ولاتزال آثار ذلك في اللغة الى اليوم كاختلاف اللهجة في الاستفهام او التعجب عنها في الخبر بل لولا اختلاف اللهجة لأصبح كثير من الكلام لغواً. نكرر الالفاظ للتأكيد مثل جاء الامير الامير ولكن اذا لم نرفع الصوت قليلاً في اللفظة الثانية

فلا تأكيد فيها ولو كررناها عشر مرات. نتبع اللفظة باخرى لبيانها مثل
جاء اخوك زيد ولكن اذا لم تكن الثانية اعلى نغمة من الاولى فلاتفيد
بياناً. نستعمل إن للتأكيد ولكن اذا لم نجعل النبرة شديدة على النون
فلا تفيد تأكيداً، الى غير ذلك مما لايتسع المجال للافاضة فيه. بل ان اللهجة
قد تقلب المعنى الى ضده، يقال انه حكم مرة على رجل ان يقف امام الناس
ويقول «ايها الناس انا لص» فلما وقف قال «ايها الناس انا لص؟» بلهجة
استفهام فانقلب المعنى من اقرار الى انكار. ومن القرائن الاشارات
وحركات الوجه، يقال ان بعض زنوج افريقيا اذا غابت الشمس سكنت
جلبتهم لأنهم لايستطيعون ان يتفاهموا بالكلام وحده، وبسبب ظلمة
الليل لايستطيعون ان يستعينوا بالاشارات وحركات الوجه. بل انك اليوم
لاتجد احداً يتكلم بدون ان يستعين بالاشارات وحركات الوجه على تقوية معناه
او ايضاحه او استدعاء الانتباه اليه، مما يدل على ان اللغات على ارتقائها
واتساعها لاتزال ناقصة، وانها دون التصوير والموسيقى. فان المصور قد
يصور بريشته ماتعجز ارقى اللغات عن الغناء فيه، والموسيقي قد يترجم
بنغماته عما لايؤديه كلام. هذا على ارتقاء اللغات في هذا العصر فكيف
يوم كانت في اول عهدها، من هذا تعلم ان الفاظ اللغة ليست هي اللغة كلها بل
هي جزء منها تتممه الاشارات وحركات الوجه وطبقة الصوت وقرائن
أخرى. وهذا سر أن التشبيه ابلغ من الحقيقة، اذا اردت ان تصور شخصاً
غريباً لغيرك فمهما دققت في وصف تقاطيعه واعضائه وبيان لونهِ وطوله
وعرضهِ فانك لاتستطيع ان تعطي الصورة الحقيقية عنهُ ولكن يكفي
ان تذكر شخصاً يعرفهُ ثم تقول انهُ يشبهه شبهاً تاماً فانه يستطيع حينئذٍ
ان يتصور ذلك الشخص في ذهنهِ، فلو كانت اللغة كافية لما كانت هنالك

حاجة الى التشبيه . ومن تدبر اللغة العربية وجد فيها شيئاً كثيراً من لغة الاشارات وحركات الوجه ولونه مثل قولهم في الخوف امتقع لون فلان واقشعر جلده واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه وأرعشت مفاصله ومثل قولهم في الغضب قطب وجهه وزوى مابين عينيهِ وانتفخت اوداجهُ وتربد فوه واحمرت عيناه الى غير ذلك مما يصور المعنى تصويراً . ولا شك ان هذا من آثار ذلك العهد الذي كانت فيه حركات الوجه والاشارات قرائن على المعنى وهو ايضاً سر أن الخطابة والانشاد والتمثيل والغناء اوقع في النفس من القراءة الفكرية .

— الترتيب —

مرَّ على اللغة زمان طويل والترتيب فيها مشوش لغير سبب اعتماداً على القرائن التي تقدم ذكرها . ولا يزال في اللغة آثار هذا التشويش اذ لانزال نقدم تارةً الموصوف على الصفة فنقول ليس في المسألة امر كبير، وتارةً الصفة على الموصوف فنقول ليس في المسألة كبير امر . ثم دخلت اللغة في دور ثانٍ لزم الترتيب فيه صورة معلومة كذكر الفاعل قبل المفعول وذكر المسند اليه قبل المسند لاعتبارات خصوصية عندهم ليس هذا محل بسطها . ولانزال نراعي هذا الترتيب اذا لم تكن هناك قرينة معنوية او قرينة اعرابية . وبعد ان تولد الاعراب في اللغــة دخلنا في دور ثالث تحررنا فيه من قيود الترتيب وعدنا الى التشويش . والفرق بين هذا الدور والدور الأول ان التشويش كان في الدور الأول اعتباطياً فصار في الدور الثالث لأغراض بيانية مقصودة، وهذا أرقى ماوصلت اليه اللغات في البيان حتى الآن . وقد ساعدنا على ذلك امران : القرينة والاعراب، ولولا الاعراب للزم الترتيب صورة معلومة لايتعداها على مانراه في اللغات

الأخرى ، فان الفاعل في اللغة الانكليزية مثلًا لايجيء الا قبل المفعول به سواءٌ دلت عليه القرينة ام لا بسبب انها ليست لغة اعرابية وكما نراه في اللغة العربية نفسها اذا كانت الكلمات لاتقبل اعراباً او لم تكن هناك قرينة معنوية ، فاننانلزم الترتيب فنذكر الفاعل قبل المفعول به مثل سبق اخي غلامي ونذكر المسند اليه قبل المسند اذا استويا في التعريف والتنكير ولم تكن هناك قرينة للتمييز بينهما مثل اخي رفيقي وافضل منك افضل مني . فالأدوار التي مرت على الترتيب ثلاثة : الأول الدور المشوش لغير قصد اعتماداً على القرينة ، والثاني الدور المرتب لاعتبارات خصوصية ، الثالث الدور المشوش لأغراض بيانية اعتماداً على الاعراب والقرينة .

— الاعراب —

من تتبع الدرجات التي مرت عليها اللغات في انتقالها من الدور التقليدي الى الدور النطقي اي من تقليد الأصوات تقليداً بسيطاً الى الفاظ مستقلة يدل بها على المعاني دلالةً صماء لاتظهر فيها صبغة التقليد كما قال المرحوم جورجى زيدان، يرَ ان الاعراب هو آخر ماوصلت اليه اللغات حتى الآن فهو عنوان رقيها . وهذا يحتمل كلاماً طويلًا ليس من غرضنا في هذه العجالة التعرض له . وانما غرضنا هنا هو ان نشير الى الأدوار التي مرت على الاعراب الى ان وصل الى حالته الحاضرة ثم نتبع ذلك بكلمة في الاعراب نفسه نجعلها خاتمة هذ البحث .

كان الاعراب في دوره الأول مشوشاً فكانوا يرفعون او ينصبون

او يخفضون أو يجزمون اعتباطاً لغير قصد بياني اعتماداً على القرينة والترتيب ، ولعل الغرض من الاعراب في هذا الدور كان تزيين الكلام وزخرفته ، فقولك جاء الضارب بضم الباء آنق من قولك جاء الضارب باسكانها ولعلهم استعملوه في اول الامر في الشعر لما يتوخونه فيه من الزخرفة والتأنق ، ولما ألفوه استعملوه في النثر ايضاً . ومن تدبر الشعر في اللغة المحكية ليومنا هذا رأى انهم قد يحركون من اواخر الكلم فيه ما لا يحركونه في كلامهم العادي ، وتلك حالة في اللغة ، اي الاعراب المشوش بدون ضابط ، لابد ان يؤول امرها اما الى الالغاء بتاتاً واما الى الدخول في دور ثان يستخدم فيه الاعراب لغرض آخر لا لمجرد الزينة او الضرورة الشعرية . والواقع ان الالغاء ابتدأ في اللغة ، ولكن في الوقف ، ولولا القليل لسقط في كل المواطن ، والواقع ان اللغة دخلت في دور ثان استخدم فيه الاعراب لبيان وظيفة الكلمة في الجملة ، ولكن وقفت اللغة في اول هذا الدور قبل ان ينضج الاعراب ويتم احكامه في كل مواطنه كما سترى : ففي دوره الأول كان شيئاً خارجاً عن اللغة . فاذا الغي لم تتأثر لأن الاعتماد في بيان المعنى كان على القرينة والترتيب ، ولذلك نرجح ان الغاءه في الوقف ابتدأ في هذا الدور ، واما في دوره الثاني وهو الدور الذي تشوش فيه الترتيب لاغراض بيانية نص النحاة والبيانيون على مواطنها ، فقد صار من مقومات اللغة وخصائصها ، لأن هناك مواطن كثيرة في الكلام لا دليل على المعنى فيها غير الاعراب ، فاذا الغي رجعت اللغة الى اللبس والغموض . فانت ترى ان الاعراب قد ساعد العرب على ان يستفيدوا من الترتيب المشوش في الدلالة على معانٍ تعجز اللغات الاخرى عن ادائها ، الا ان اللغة وقفت قبل ان يتم نضجه اي وصل الينا وفيه آثار

التشويش وهذا التشويش نوعان: نوع استعمل قديماً ثم أُهمل ومن تفقد كتب النحو وقع على شيء كثير من هذا؛ فقد اجازوا نصب الاسم عند امن اللبس نحو خرق الثوب المسمار وكسر الزجاج الحجر بنصب المسمار والحجر ومنه قول الشاعر :

مثل القنافذ هداجون قد بلغت   نجران او بلغت سوءاتهم هجر

برفع نجران وهجر ونصب سوءات وقاسه ابن الطراورة عملاً بقراءة فتلقى آدم من ربه كلمات بنصب آدم ورفع كلمات ومنه ان بعض العرب كان ينصب بأن اواحدى اخواتها المبتدأ والخبر نحو :

اذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن   خطاك خفافاً ان حراسنا اسدا

ونحو قوله :

كأن اذنيه اذا تشوفا   قادمة او قلماً محرفا

وقوله ياليت ايام الصبي رواجعا • ونحو قولهم لعل اباك قاد ما •ومثله جزم الفعل بعد لن مع انها من النواصب كقول الشاعر :

لن يخب الآن من رجائك من   حرك من دون بابك الحلقه

ومثله جزم الفعل بان الناصبة نحو قوله :

اذا ماغدونا قال ولدان اهلنا   تعالوا الى ان يأتنا الصيد نحطب

ومثله اهمال لم الجازمة نحو قوله :

لولا الفوارس من نعم واسرتهم   يوم الصليفاء لم يوفون بالجار

وقوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلي اسيراً يمانيا

وقال ابن مالك انها لغة وزعم اللحياني ان بعض العرب ينصب بها كقراءة بعضهم الم نشرح بفتح الحاء•

وقوله :

في اي يومي من الموت افر ايوم لم يقدر او يوم قدر

بفتح الراء في يقدر ومثله اهمال لا الناهية نحو :

لاتهين الفقير علك ان تركع يوماً والدهر قد رفعه

وان اولها النحاة بتقدير نون التوكيد الخفيفة — ومثله اعمال اذا الشرطية في الشعر واهمالها في النثر — ومثله جزم الفعل المرفوع في قوله :

ابيت اسري وتبيتي تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي

ومثله قوله :

يالك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
قد رفع الفخ فماذا تحذري

ومثله قوله :

فاليوم اشرب غير مستحقب اثماً من الله ولا واغل

باسكان الباء في اشرب الى غير ذلك .. ومنه نوع لا يزال مستعملاً في اللغة الى اليوم واليك البيان يقول النحاة ان المسند اليه والمسند يرفعان لانهما عمدة ولكننا نراهم ينصبون الاول بعد « ان » او احدى اخواتها وينصبون الثاني بعد « كان » او احدى اخواتها فلماذا نصبا اذا كانا عمدة؟ لاشك ان ذلك اثر من آثار التشويش في الاعراب . ومثله بناء اي على الضم في مثل قولهم سلم على ايهم افضل وبناء الظروف المنقطعة عن الاضافة في مثل قولهم الحمد لله من قبل ومن بعد ومثل بناء بعض الالفاظ المبنية . فاذا كانت اللغة اعرابية فما معنى بناء بعض الفاظها . ومثل اعمال ما على لغة اهل الحجاز واهمالها على لغة اهل تميم ، بل اعمالها على لغة اهل الحجاز بشرط ان تكون متصلة ولم ينتقض نفي خبرها بإلا نحو ما زيد

شاعراً واهمالها اذا لم تكن كذلك نحو ما قائم زيد وما غلامك عمرو ضارب وما زيد الا شاعر وما ان عمرو كريم بخلاف ليس في ذلك كله مع انها نافية مثلها . ومثل نصب جمع المؤنث السالم بالكسر ومثل اعراب الفعل المضارع ولا سيما في حالتي الرفع والنصب فقد حار النحاة في سبب اعرابه وغير ذلك مما ليس من غرضنا تعداده واحصاؤه . وهذا النوع الثاني من التشويش اصبح قياسياً في اللغة . واكبر لذة في درس اللغات تكون في هذا المزيج من المعقول وغير المعقول والقياسي والشاذ وقد قال احد علماء اللغة ان اللغة مثل صديق هفواته تعززه لدينا وتزيدنا حباً له .

تكلمنا عن الادوار التي تدرج فيها الاعراب وبقيت لنا كلمة في الاعراب نفسه . هل دلالة العلامات الاعرابية كالضمة والفتحة والكسرة والسكون على الحالات الاعرابية كالفاعلية والمفعولية والاضافيه والطلبية اعتباطية او وضعية اي هل رفع الفاعل ونصب المفعول وخفض المضاف اليه وسكن الفعل الطلبي اتفاقاً اوهل هناك اسباب طبيعية لذلك ؟

هذا بحث دقيق يحتمل كلاماً طويلاً نوافق في بعضه النحاة فنثني عليهم ونخالفهم في البعض الاخر فنستميحهم العفو .

يقول النحاة ان علامات الاعراب حركات وحروف وهم يعتبرون الالف والواو والياء حروفاً . والصحيح ان الالف حركة طويلة بالنسبة الى الفتحة مثل الالف في كتاب ، وممدودة مثل الالف في سماء ومادة فهي حركة لا حرف ، واما الواو والياء فقد تكونان حركتين طويلتين بالنسبه الى الضمة والكسرة مثل الواو والياء في عود وعيد وحركتين

ممدودتين مثل الواو في وضوء والياء في مسيء وقد تكونان حرفين مثل الواو في ثوب والياء في بيت فهما من الاشكال المشتركة بين الحروف والحركات ، وهما تستعملان كعلامتي اعراب تارة باعتبار انهما حركتان وتارة باعتبار انهما حرفان، وعلى ذلك فالاسماء الخمسة من المعربات بالحركات لا بالحروف ، وجمع المذكر السالم والمثنى من المعربات بالحركات الا جمع المذكر السالم من المنقوص فانه يعرب بالحروف نحو جاء المصطفون ورأيت المصطفين ومررت بالمصطفين، والا المثنى في حالتي النصب والخفض نحو رأيت الرجلين ومررت بالرجلين. وعليه فجمع المذكر السالم والمثنى، من المعربات بالحركات والحروف معاً لا بالحروف وحدها كما يقول النحاة. ومما يعرب بالحروف غير المثنى وجمع المذكر السالم المنقوص الافعال الخمسة من الفعل المضارع فاثبات النون فيها يدل على حالة ، وحذفها يدل على حالة أخرى . ولايعرب بالحركات القصيرة ، اي الضمة والفتحة والكسرة، من الاسماء غير الاسم المفرد وجمع التكسير وجمع المؤنث السالم . ويستثنى من ذلك الاسماء الخمسة في حالة الاضافة الى غير ياء المتكلم فانها تعرب بالحركات الطويلة بدلا من الحركات القصيرة . ولعل السبب في ذلك ان اللغة العربية القديمة كانت تعرب بالواو والالف والياء مثل اللغة النبطية ثم استبدلت الحركات الطويلة بحركات قصيرة للتخفيف في كل الاسماء إلا في الاسماء الخمسة فكان ذلك فيها اثراً باقياً من ذلك العهد .

واما الفعل فلا نتعرض له الان بل نترك الكلام عنهُ الى محاضرة أخرى . اذا عرفنا علامات الاعراب يبقى علينا ان نعرف صفة كل منها ، فالضم سواءٌ كان بالضمة ام بالواو اقوى الحركات وافخمها ، والفتح سواءٌ كان بالفتحة ام بالالف اخف الحركات لسهولة اخراج الصوت والفم مفتوح،

والخفض سواء كان بالكسرة ام بالياء اثقل الحركات لما يقع من التعاند بين اخراج الصوت وخفضه، وقد تنبه النحاة الى شيء مثل هذا في مواضع مختلفة .. واللغات التي يكثر فيها الضم تكون فخمة جزلة والتي يكثر فيها الفتح تكون خفيفة رشيقة ، والتي يكثر فيها الخفض تكون ثقيلة مستبشعة ولا تناسب الغناء لان رفع الصوت مع الضم او الفتح اسهل منه مع الخفض ، ويكثر هذا الصوت في لغة دون ذاك لاسباب عديدة اهمها الاقليم ، فالذين يسكنون الاماكن الباردة يميلون في الفاظهم الى الضم والخفض ، وبعبارة أخرى لايفتحون افواههم خوف البرد ،والذين يسكنون الاماكن الحارة يميلون في الفاظهم الى الفتح استبراداً ، ولما كان العرب سكان قفر حار يعيشون في الهواء الطلق كثر الفتح في لغتهم سواء كان حركة بنائية ام حركة اعرابية ، وفي كل ذلك كلام لايتسع له المقام .. واما اذا كانت علامات الاعراب بالحروف فالواو في جمع الذكور السالم من المنقوص والالف في المثنى افخم من الياء فيهما فعلامات الاعراب في الاسم تقسم بحسب ما تقدم الى ثلاثة اقسام قوية وخفيفة وثقيلة .

لنأت الان الى البحث في الحالات الاعرابية . . يقول النحاة ان حالات الاسم الاعرابية ثلاث : رفع ونصب وخفض . لان الاسم لايخلو ان يكون على رأيهم اما عمدة واما فضلة واما مشتركا بينهما، فحالة العمدة الرفع وحالة الفضلة النصب وحالة المشترك بينهما الخفض.. وماهي العمدة؟ قالوا هي مالا ينعقد الكلام بدونه كالفاعل في نحو قام زيد . وما هي الفضلة؟ قالوا هي مازاد عن القدر المطلوب لانعقاد الكلام كالمفعول به في نحو ضرب زيد عمرا . وان لم يكن فضلة في المعنى لاحتياج العبارة اليه

في اتمام المراد منها . وما هو المشترك بينهما ؟ قالوا هو ما يكون تارة مكملًا للعمدة نحو جاء غلام زيد، وتارة مكملًا للفضلة نحو رأيت غلام زيد ، ويقع تارة في موضع العمدة نحو سرني قدوم زيد، وتارة في موضع الفضلة نحو هذا ضارب زيد ، وقد الحقوا من العمد بالفضلات المنصوب في باب النواسخ ، وبالمضاف اليه المجرور بالحرف .. هذا ما يقوله النحاة . ولكن اذا كانت العمدة مالا ينعقد الكلام بدونه فكل جزء من الكلام عمدة لايستغنى عنه سواء في ذلك الاسماء والافعال والحروف وسواء كان الاسم فاعلًا ام مفعولا به ام مضافاً اليه ام ظرفاً ام حالا ام غير ذلك لاحتياج العبارة الى كل جزء من اجزائها في اتمام المراد منها . . واذا كانت الفضلة مازاد عن القدر المطلوب لانعقاد الكلام فاحر بذلك الزائد ان يصبح لغواً يجب حذفه لاستغناء العبارة عنه . . واذا كان المشترك بينهما ما كان مكملًا للعمدة او للفضلة فهل التكميل حالة اعرابية ؟ واذ كان حالة اعرابية اما كان يجب ان تكون للاسم المكمل للعمدة علامة خصوصية غير علامته اذا كان مكملا للفضلة ليتميز الواحد عن الاخر ؟ ثم اذا كان يقع تارة في موضع العمدة وتارة في موضع الفضلة فلماذا لايكون عمدة في الاول وفضلة في الثاني ؟ وهنا ليسمح لنا النحاة ان نبدي رأياً آخر .

الاسم في الجملة قد يكون عمدة ليس لانه لاينعقد الكلام بدونه بل لاحد سببين آخرين : اما لاهميته نحو الولد مجتهد الاول مسند اليه والثاني مسند وكلاهما عمدة لايستغني الواحد عن الاخر اذ لايكون مسند اليه بدون مسند ولا مسند بدون مسند اليه ولو تقديراً . . واما لقوته بالنسبة الى غيره في الجملة نحو ضرب زيد عمراً ... لزيد وظيفتان

عمل الفعل والدلالة عليه ولعمرو وظيفتان قبول اثر الفعل والدلالة عليه، فلانهما يشتركان في الدلالة على الفعل لخروجه من الاول ووقوعه على الثاني فهما مهمان لايستغني الواحد عن الاخر اذلايكون ضارب بدون مضروب، ولكن لان الاول عمل الفعل فهو قوي ولان الثاني وقع عليه الفعل فهو ضعيف. فهما يتساويان في الاهميه ولو لم يكن غير هذا الاعتبار لكان كلاهما عمدة، ولكن لانهما يختلفان في القوة والضعف وجب ان ينظر اليهما باعتبار هذا الاختلاف فالقوي منهما نعتبره عمدة لقوته وليس لاهميته، واذا حذف الضارب وبقي المضروب لم يبق دليل آخر على وقوع الفعل غيره. ولانه الدليل الوحيد فانه يكتسب اهمية فينظر اليه باعتبارها ونعده عمدة ويسقط عنه اعتبار الضعف . لاننا انما نظرنا اليه باعتبار الضعف لوجود قوي بازائه فاذا ذهب القوي لم تبق حاجة الى هذا الاعتبار، وسمي نائب فاعل لانه ناب عنه في الدلالة على الفعل وليس في عمله ... وقد يكون فضلة اما لضعفه بالنسبة الى غيره كعمراً في قولنا ضرب زيد عمراً وان كان مثل زيد في الاهمية كما قدمنا، واما لكثرة دورانه في الكلام كالحال نحو جاء زيد راكباً . والظرف نحو جاء زيد صباحاً وغير ذلك من المنصوبات .. فاذا كان الاسم عمدة اخذ العلامة القوية الاعرابية للتناسب بين اهمية الكلمة في الجملة اوقوتها وبين قوة العلامة الاعرابية، واذا كان فضلة اختاروا له العلامة الخفيفة، ولعلهم راعوا في ذلك الخفة لكثرة دوران الفضلة في الكلام .. واما ما يسمى في اصطلاح النحاة مشتركا بينهما فاختاروا له العلامة الثقيلة لقلة دورانه على اللسان . والذي يلوح لنا انه لم يكن للاسم في الاصل الا حالتان عمدة وفضلة، اورفع ونصب، وان الحالة الثالثة اي حالة

الخفض طارئة على اللغة ، اوانها اثر من آثار التشــويش الاعرابي ، لانه لاحاجة الى حالة ثالثة اعرابية فضــلا عن ان الخفض ثقيل مستبشع .. يرفع الاسم لانه مهم او قوي ، وينصب لانه ضعيف او كثير الدوران على اللسان . واما خفضة فلماذا ؟

ولنا على ذلك ادلة كثيرة .

(١) ان الفعل المضارع ، الذي يشبه الاسم في الاعراب ، يرفع وينصب ويجزم ولكنهُ لايخفض .

(٢) ان اكثر الاسماء ليس لها الا علامتان اعرابيتان : الاولى الرفع والثانية النصب والخفض معاً كجمع المذكر السالم فتقول جاء المعلمون ورأيت المعلمين ومررت بالمعلمين ، وكالمثنى فتقول جاء المعلمان ورأيت المعلمين ومررت بالمعلمين ، وكالممنوع من الصرف فتقول جاء ابرهيم ورأيت ابرهيم ومررت بابرهيم ، وكجمع المؤنث السالم نحو جاءت المؤمنات ورأيت المؤمنات ومررت بالمؤمنات فلو كان هناك فرق بين النصب والخفض في الاعتبار لوجب ان يكون لكل منهما علامة خصوصية تميز الواحد عن الاخر في هذه الانواع من الاسم وهي كثيرة .

(٣) ان الظروف التي تجر بحرف في يجوز ان يسقط حرفها فترجع الى النصب فتقول جئت في الصباح وجئت صباحاً فلو كان الخفض لبيان حالة اعرابية لخفض الظرف بحرف جر وبدونه .

(٤) ان كثيراً من الافعال المتعدية بواسطة حرف خفض قد تتعدى بنزع الخافض فينصب الاسم المخفوض بذلك الحرف على المفعولية الصريحة لان الفعل حينئذ قد وصل اليهِ بنفسه ومنه قول الشاعر .

تمرون الديار ولم تعوجوا   كلامكم علي اذن حرام

اي تمرون على الديار لحذف الحرف ونصب المخفوض به . ولا فرق بين نصب الاسم اوخفضه. واذا لم يرد نزع الخافض في بعض الافعال مثل بصرت بزيد فقد يستبدل الفعل بآخر يتعدى رأساً نحو ابصرت زيداً او نظرته او رأيتهُ فلو كانت الرؤية لاتتم الا بالخفض لوجب ان يستعمل حرف الجر مع كل الافعال التي تدل على الرؤية .

(٥) المفعول لاجله المخفوض بحرف التعليل نحو هربت للخوف او من الخوف يجوز فيه اسقاط حرف الخفض وحينئذ يعود الى النصب فلو كان للخفض معنى اعرابي للزم المفعول لاجله الخفض سواء جر بحرف ام لا .

(٦) مميز كم الاستفهاميه يجوز فيه النصب على الاصل والجر بحرف « من » نحو كم كتاباً قرأت وكم من كتاب قرأت ، ومميز كم الخبريه يخفض على الاصل وينصب اذا فصل بينهما نحو كم صديق لي و كم لي صديقاً فالخفض والنصب متعاقبان هنا .

(٧) ان بعض الظروف تلزم البناء على الفتح ولو تقدمها حرف خفض ، نحو من الان ، ومن اين ، ولاشك ان ذلك اثر من آثار النصب حين لم يكن الخفض مستعملاً .

(٨) ان قسماً مما يعتبر اليوم حرف جر كان في اصله فعلاً مثل « على » فانها مأخوذة من علا يعلو و كذلك خلا وعدا وحاشا وهذه الثلاثة الاخيرة لاتزال الى اليوم تنصب وتخفض .

(٩) ضمائر النصب والجر واحدة ، الا للشخص المتكلم المفرد ، فتقول كتابك ورأيتك و كتابهُ ورأيته .

الخلاصة ان الاسم لايكون الا عمدة او فضلة فالعمدة اخذت الرفع لانه اقوى الحالات او اشرفها كما يقول النحاة ، والفضلة كانت تنصب

ثم طرأ على بعضها الخفض ، او كانت تنصب وتخفض على السواء ثم مالت اللغة الى النصب ولولا القليل لزال الخفض كما زال من الفعل المضارع والله اعلم.

ــ الافعال في اللغة العربية ــ

من قابل كتب الصرف والنحو في اللغة العربية ، على كثرتها بين قديمة وحديثة ، بمثلها في اللغات الافرنجيه يجد هناك فروقاً كثيرة ، اهمها أن الافرنج قد طبقوا احكام لغاتهم وقواعدها على ماوصلوا اليه من الحقائق في علم اللغة او فلسفتها وهو العلم الذي يبحث عن تاريخ الالفاظ وتنوعها ودلالتها مع ماطرأ عليها من التغير كما قال المرحوم جرجي زيدان في كتابه «فلسفة اللغة» بحيث صارت احكام لغاتهم وقواعدها لا صناعة فقط كما هي عندنا بل علماً ايضا . . ولهم في ذلك غرضان : الاول تسهيل تلك الاحكام على الطالب وتقريب منالها منه لان الاحكام المعقولة اسهل فهماً واقرب تناولا من الاحكام غير المعقولة . الثاني جعل الفائدة من تلك الاحكام اتم .

***

لكل موضوع من موضوعات التعليم كالقراءة والكتابة والحساب والصرف والنحو وغير ذلك فائدتان : الاولى ذاتية اي يتعلمه الطالب لانهُ سيحتاج اليه في الحياة . والثانية عرضية اي ان درس ذلك الموضوع يساعد على توسيع ادراك الطالب وترويض قواه العقلية وتعويده التفكير والملاحظة

القيت هذه المحاضرة في الجامعة المصرية في شهر فبراير من سنة ١٩٢١ ونشرت في الجزء الرابع من المجلد الثامن والخمسين من المقتطف.

والاستنتاج..ولا تتم هاتان الفائدتان الا اذا كانت حقائق كل موضوع معقولة صحيحة ترتبط فيها الاسباب بنتائجها ويرجع في النتائج الى اسبابها مما خلت منه كتبنا الصرفية والنحوية .. بلى قد حاول الصرفيون والنحويون ان يعللوا احكامهم ويربطوها باسبابها الا ان اكثر الاسباب التي ذكروها واهية حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوي ..والطالب الذي يتعلم على هذا الاسلوب السطحي الشاق ،ويقتنع بتلك الاسباب والعلل الواهية ،ويتعود ان يتلقاها بدون تفكير ولا تفكير ، تظلم مع الايام بصيرته ويأفن رأيه وتضعف فيه اداة الحكم بحيث يسهل استدراجه الى تصديق كل خرافة واعتقاد كل سخافة فضلا عما يستغرقه الدرس على ذلك الاسلوب من الوقت الطويل عبثا ...

فما احرانا والحالة هذه ان نتدارك الامر فنجري على الطريقة الافرنجية في بناء احكام لغتنا وقواعدها على مبادىء علمية جديدة تسهيلاً على الطالب واقتصاداً في وقته وترويضا لعقله .. وهذا ما أحاول بسطه لديكم راجيا ان تغتفروا خروجي عن المألوف المتعارف ؛ وساقتصر على الكلام عن الفعل في اللغة العربية لان البحث في الفعل اهم الابحاث الصرفية في كل لغة .

***

تعرفون ان الفعل لا يمكن ان يحدث من تلقاء نفسه ، بل لابد له من فاعل يفعله ، فالجلوس لابد له من جالس ، والخروج لابد له من خارج ، وكذلك لابد له من وقت ، فاذا وجد الفاعل ولم يكن وقت او وجد الوقت ولم يكن فاعل فلا يقع فعل .. فاذا اردنا تعريف الفعل احتجنا الى ثلاثة اشياء : صيغة للفعل وعلامة للفاعل وعلامة للزمان .

— الصيغة —

صيغة الفعل مأخوذة من المصدر، ومعنى ذلك ان العرب كانوا يصرفون المصدر مع الضمائر ، ولا تزال آثار ذلك في اللغة الى اليوم اذ لا نزال نستعمل المصدر امراً فنقول صبراً مهلاً رفقاً . ولم يكن في الاصل فرق بين صور المصدر وصيغ الفعل ، ولا تزال بعض الافعال تشبه المصدر مثل طلب والطلب من الصحيح وجر والجر من المضاعف .. وكانت صور المصدر قليلة على عد صيغ الفعل فكان المصدر من الصحيح يجيء على وزن «طرق» بأسكان الاول والآخر، لان اول ماوضع من اسماء الاحداث كان البعض منه محكياً عن الاصوات المسموعة من الحيوان او الجماد ، فاذا حاكينا الاصوات الخارجية في ذي ثلاثة احرف جئنا به ساكن الاول والاخر. ولا يزال المصدر في السريانية كذلك على حكايته الاصلية ، ثم حركنا الحرف الاول فيه في الماضي تفادياً من خشيبة اللفظ وتعسر الابتداء بالساكن كما قال جبر ضومط في كتابه « خواطر في اللغة » . وكانت حركته الفتح لان الفتح اخف الحركات ، ورددناه الى السكون في المضارع على ماكان عليه في الاصل لانتفاء الابتداء بالساكن لوقوع حرف المضارعة قبله .. وكان المصدر من الناقص على وزن رمى ، وأصل حكايته من باب حكاية الصحيح اي الاصل فيه ان يكون ساكن الاول كما هو في اللغة السريانية . وكان المصدر من المضاعف على وزن جر ، وهو اما ان تقصد به حكاية الصوت نحو لحت الافعى وأن المريض وخر الماء وشق الثوب وجر الحبل ومص الشراب وشم الطيب ، واما ان تراعى فيه حكاية الحركة مثل هب النائم وحل العقدة وشبت النار ، اوحكاية صفة الشيء بما توهم في مقاطع الحروف من الصفات وما في اقترانها من الهيئات نحو رث

الثوب وكل السيف وخف الحمل وجف الغصن ، ومن ذلك في لغة الاطفال « دح » للشيء الحسن « وكخ » للشيء القبيح لما توهموا في اقتران الدال والحاء من الحسن واقتران الكاف والخاء من القبح .. وكان المصدر من الاجوف على وزن قام واكثر ما يقصد به حكاية الحركة نحو سال الماء وذاب الجامد وماع السائل وفاح الطيب وحام الطائر وغاص الحوت لما بين المد فيه وحركة المحكي من المطابقه(١).. وعلى ذلك فصور المصدر الاصلية اربع على عدد صيغ الفعل، ثم مع كرور الزمان وتلاعب اللسان خرج المصدر عن الحكاية الاصلية وتفرع الى صور عديدة كثيرة الاشكال مختلفة الحركات بين مشبعة وقصيرة مثل كتابة ورجوع وعلانية وندامة وعرفان وجولان ورحيل وقيام الى نحو اثنين واربعين شكلاً كما هو مذكور في كتب الصرف المطولة .. ولذلك تكون الكتابة مثلاً صورة جديدة عن كتب ، والجلوس صورة جديدة عن جلس .. ويظهر ان هذا التفرع نشأ بعد ان تولدت في اللغة صيغ الفعل ، والا فكان يجب ان تكون صيغ الفعل على قدر صيغ المصدر الجديدة . وقد لزمنا في التصريف حكاية المصدر الاصلية لخفتها وحسن وقعها ، لاننا لو صرفنا اشكال المصدر على اختلاف صورها وكثرة مقاطعها مع الضمائر لجاءت ثقيلة طويلة .. اذاً ليست صيغ الفعل الا صور المصدر القديمة . واذا قلنا ان المصدر هو اصل الفعل عنينا بذلك صوره القديمة لا صوره الجديدة التي تفرعت عنها ، وهذه الصور القديمة لا تزال محفوظة في صيغ الفعل كما تحفظ « الاحافير » في طبقات الارض مما قد يوهم ان الفعل هو الاصل وان المصدر هو الفرع .

---

(١) راجع مقالة اللغة والعصر لليازجي في مجلة البيان .

— الفاعل —

المهم في بيان الفاعل معرفة جنسه اي هل هو مذكر ام مؤنث ، وعوده اي هل هو مفرد ام مثنى ام جمع ، وشخصه اى هل هو متكلم ام مخاطب ام غائب ، وقد استعملنا الضمير المتصل لبيان ذلك في الماضي والمضارع والامر ، فمن اين اتينا بهذه الضمائر؟ لم يكن في الاصل الاضمائر منفصلة كما نرى في اللغات الافرنجية .. ولابد انه مر زمان طويل على العرب كانوا يستعملون فيه الضمائر المنفصله في التصريف ، فكانوا يقولون في تصريف الماضي ضرب هو ضرب هما ضرب هم ضرب هي ضرب هما ضرب هن الخ .. وفي تصريف المضارع هو ضرب وانا ضرب ونحن ضرب وانت ضرب الخ. وفي تصريف الامر اضرب انت اضرب انتما اضرب انتم الخ.. ثم مع كرور الزمان وتلاعب اللسان نحتنا منها الضمائر المتصلة وسنعود الى هذا البحث عند كلامنا عن صيغ الفعل الماضي والمضارع والامر .

— الزمان —

الزمان ثلاثة انواع : ماض وحاضر ومستقبل . وفي اللغة العربية ثلاث صيغ للفعل: صيغة الماضي وهي موضوعة للماضي ، وصيغة المضارع وهي مشتركة بين الحال والاستقبال ، وصيغة الامر وهي مختصة بالاستقبال ، فما هي علامة الزمان في هذه الصيغ ؟ وكيف نتميز الواحدة عن الاخرى؟ لابد انه مر زمان طويل على اللغة كانوا يستعملون فيه الصيغة الواحدة بدلا من الاخرى احياناً ، ونرى مثل ذلك في اللغة العبرية فانهم مع وجود صيغ الماضي والمضارع والامر في لغتهم قد

يستعملون الصيغة الواحدة بدلا من الاخرى فهم يقولون مثلا اذهب وقلت لهذا الشعب كما هو وارد في بعض آيات الكتاب .. بل نرى آثار ذلك في اللغة العربية الى اليوم فاننا قد نستعمل الماضي للحاضر نحو .

فالله يوم انت فيه مسلم وهبت له جرم الزمان الذي خلا

اي اهب ، ونحو كما «يقول الشاعر» اي كما قال ، و كبعتك الدار في الانشاء الايقاعي اي ابيعك ، وقد نستعمل الماضي للمستقبل في الانشاء الطلبي نحو رحمك الله اي يرحمك ، وفي الشرط نحو ان قمت قمت اي ان تقم اقم ، ونستعمل المضارع للماضي مع لم في النفي المنقطع نحو لم اذهب ومع لما في النفي المتصل بالحاضر نحو جئت ولما تطلع الشمس ؛ وللمستقبل القريب مع السين في حالة الاثبات نحو سأذهب ؛ ومع لا في حالة النفي نحو لا اذهب ؛ وللمستقبل البعيد مع سوف في حالة الاثبات نحو سوف اذهب ؛ ومع لن في حالة النفى نحو لن اذهب . ونستعمل الماضي والمضارع للازمنه كلها نحو انما يعمر مساجد الله من آمن بالله اى من يؤمن دائماً ؛ والله يحيى ويميت اى يحيى ويميت دائماً .. الا ان استعمال الصيغة الواحدة لغير الزمان الموضوعه له محصور في مواطن مخصوصة لا يتعداها فصار استعمالها كذلك قياساً ، وفي ما عدا ذلك لا يجوز استعمال الصيغة الواحدة الا في ما وضعت له . فكيف تدل الصيغة على الزمان ؛ اذا اعتبرنا الضمائر المتصلة علامات للفاعل فليس هناك الا صيغة الفعل وعلامة للفاعل واما الزمان فليس له علامة .. وقد اختلف الصرفيون في دلالة الفعل على الزمان ، فمنهم من قال ان الفعل يدل على الحدث والزمان معاً بالمطابقة كدلالة الانسان على الحيوان الناطق فانه تمام المعنى الموضوع له اللفظ وهذا مذهب الجمهور . وقال اخرون كالسيد ان دلالة

الفعل على الحدث والزمان تضمن كدلالة الانسان على الحيوان فقط او الناطق فقط لدخول الجزء ضمن المعنى الموضوع له اللفظ ، وقد اختار ذلك الصبان . وقال الشاطبي ان الفعل يدل على الحدث بالمادة ، و على الزمان بالصيغة ، نحو ضرب فالضاد والراء والباء تدل على الحدث في المصدر والفعل واسم الفاعل وسائر المشتقات من هذه المادة ، وبناؤها على وزن فعل يدل على الزمان . بل قالوا ان الفعل يدل على الفاعل والمكان التزاماً كدلالة الانسان على الضاحك فالضاحك خارج عن الانسان ليس كلًّا له ولا بعضاً منه ولكنه لازم للمعنى الموضوع له اللفظ . هذا مايقوله الصرفيون . ولكن اذا كان الفعل يدل على الحدث والزمان بالمطابقة او التضمن ، وعلى الفاعل والمكان بالالتزام كما يقولون ، فماذا لا يكون للمصدر وسائر المشتقات كل هذه الدلالات على حين نرى ان البصريين جردوا المصدر من الدلالة على غير الحدث في احتجاجهم على الكوفيين اذ قالوا ان مدلول المصدر واحد وهو الحدث ، ومدلول الفعل متعدد لانه يدل على الحدث والزمان بالمطابقة وعلى الفاعل والمكان بالالتزام ، والواحد قبل المتعدد ، واذا كانت الصيغة تدل على الزمان كما قال الشاطبي فكيف نعرف الزمان اذا تساوت صورة الماضي والمضارع مثل مس يمس وخاف يخاف . لابد اذاً ان تكون هناك قرينة أخرى على الزمان . كان يجب ان تكون علامة خصوصية للزمان كما ان هناك علامة خصوصية للفاعل على مانرى في بعض الافعال في اللغة الانكليزية مثل he- wolk-ed فلفظة he علامة للفاعل ولفظة wolk صيغة الفعل ولفظة ed علامة للزمان . ولكن العرب استخدموا علامة الفاعل للدلالة على الفاعل بلفظها ، وعلى الزمان بموضعها ، فاذا ارادوا المضي وضعوا علامة الفاعل في الآخر .

فكانت صيغة الماضي نحو ضربت وضربنا • واذا ارادوا الحاضر وضعوا علامة الفاعل في الاول نحو أضرب ونضرب ، واذا ارادوا المستقبل استخدموا صورة الحاضر مع قرائن أخرى كالسين وسوف وغيرها ، كما يفعل الأخرس ، فانه اذا اراد الاشارة الى فعل فعله في الزمان الماضي فانه يشير اولا الى الفعل ثم الى نفسه • واذا اراد الاشارة الى فعل يفعله في الحاضر او المستقبل اشار اولا الى نفسه ثم الى الفعل •• فالزمان اذاً ليس له علامة خاصة به كالفاعل ولكن له موضعاً • وعلامة الفاعل تستخدم لامرين للدلالة على الفاعل بلفظها • وعلى الزمان بموضعها ••• ولنشرع الآن في الكلام على كل صيغة بمفردها.

— الماضي —

يتميز الماضي عن المضارع والامر في الأصل بوضع علامة الفاعل في آخره ، وسترى ان علامات الفاعل في آخر المضارع والامر ليست اصلية فيهما اولا وهي غير علامات الفاعل في آخر الماضي ثانياً •• وقد قلنا ان الضمائر المتصلة منحوتة من الضمائر المنفصلة • واليك تصريف ضرب مثلاً مع الضمائر :

هو	ضرب	—
هما	«	ا
هم	«	و
هي	«	ت
هما	«	تا
هن	«	ن الخ

فالفتحة في هو ضرب مأخوذة من هو والالف من هما والواو من همو التي لانزال نستعملها احياناً في الشعر مثل قوله «همو رحلوا عنا لامر لهم عنا» والتاء في هي ضربت اصلها هاء ، اي ان العرب مر عليهم زمان طويل كانوا يقولون في هي ضربت .. هي ضربه ثم قلبوا الهاء تاء لان الهاء خفية فصاروا تارة يقولون هي ضربه وتارة هي ضربت ثم استقرت على التاء . ولاتزال اللغة العبرية تستعمل تارة الهاء وتارة التاء وقلب الهاء تاء مألوف في اللغة العربية فان الهاء في نحو المدرسة اذا تحركت تحولت تاء واذا وقف عليها تحولت هاء . و « تا » في هما ضربتا مأخوذتان من «هما» بعد حذف الميم وقلب الهاء تاء « والنون » في هن ضربن مأخوذة من «هن» و«التاء» من ضربت مأخوذة من «انت» و«تما» من ضربتما مأخوذة من « انتما » و« تم » من ضربتم مأخوذة من انتم » و(التاء) في ضربت مأخوذة من (انت) ، و«تما» في ضربتما مأخوذة من انتما ، وتن في ضربتن مأخوذة من انتن ، و«نا» في ضربنا مأخوذة من نحن ، واما (التاء) في انا ضربت فانها ترجع الى اصل قديم لامحل لبيانه هنا .. فالفتحة في هو ضرب ليست حركة بنائية ، والتاء في هي ضربت ليست علامة للتانيث كما توهم الصرفيون وانما هما ضميران ، وعليه يكون الضميران في هو ضرب وهي ضربت ظاهرين لامستترين .. وكان هذا النحت في الضمائر لانها طويلة بعضها من مقطعين وبعضها من ثلاثة . بخلاف الضمائر في اللغات الافرنجية فانها قصيرة فليس في استعمالها مع الفعل ثقل على اللسان ولا طول .. بقي هناك كلام كثير عن تصريف الماضي مع الضمائر اضربنا عنه خوف الاطالة .

— المضارع —

اهم صيغ الافعال في اللغة العربية صيغة الفعل المضارع . لانه يستعمل

للحال المثبت والمنفي ، والاستقبال المثبت والمنفي والقريب والبعيد ، وقد يستعمل خبراً وطلباً ، نهياً وامراً ، ويستعمل للماضي المنفي المنقطع عن الحاضر بلم ، والمنفي المتصل بالحاضر بلما ، فلو دل على الماضي المثبت لاغنى عن صيغتي الماضي والامر .. وصيغة المضارع هي صيغة الماضي ، فهي مأخوذة من المصدر مثله ، فكان يجب ان لا يكون اختلاف في الصيغة بين الماضي والمضارع ، ولكن مع كرور الزمان وتلاعب اللسان ، وقع الاختلاف في الصيغتين في افعال كثيرة ، فكانت ابواب الفعل الصحيح ستة وهي .

ضرب　　يضرب

نصر　　ينصر

علم　　يعلم　　الخ

ويدلك على ان تلاعب اللسان هو سبب هذا الاختلاف ان الابواب الثلاثة الاولى اكثر استعمالاً ، وقد وقع هذا الاختلاف في عين الفعل لانها متحركة في اصل وضعها فهي عرضة لتلاعب اللسان فجاءت تارة مفتوحة وتارة مكسورة وتارة مضمومة ، ثم قد تتفق عين الماضي وقد تختلف ، اما اتفاقها فلان الصيغتين من اصل واحد ، واما اختلافها فلا سبب له غير تلاعب اللسان . ويدلك على ذلك ان الفعل الواحد قد يجيء على بابين او اكثر من هذه الابواب ، فلو كان هناك سبب طبيعي او قصد اعتباري لما جاز ذلك . . بل اذا اخذنا فعلاً من الافعال الثلاثية ولم نكن نعرف اصله فلا نستطيع ان نحكم انه من هذا الباب او ذاك اذ ليس لدينا قياس نعتمد عليه .. وهذه حالة في اللغة لا تنطبق على مذهب النشوء والارتقاء اي لو بقيت اللغة مطلقة لصار لكل باب من هذه الابواب معنى

خاص لاتجيء عليه الا افعال خاصة كما وقع ذلك في البعض من هذه الابواب قبل عهد التدوين، فان الافعال التي تدل على عيب في الخلقة لاتجيء الا من باب علم يعلم مثل خرس يخرس وطرش يطرش وان كان غيرها يجيء عليه ايضاً وعلى غيره، والافعال التي تدل على الغرائز يجيء اكثرها على باب كرم يكرم مثل شرف يشرف وحسن يحسن. والافعال التي عينها اولامها حرف حلق يجيء اكثرها على وزن فعل يفعل بفتح العين في الماضي والمضارع لسهولة لفظ الحرف الحلق مع الفتح، وباب حسب يحسب اغلب مايجيء عليه الافعال المبدوءة بواو مثل ورث يرث وولي يلي .. فانت ترى ان الافعال الثلاثية في اللغة العربية مرت على دورين ووقفت عند الدور الثالث، اما الدور الاول فهو الذي كانت فيه صيغتا الماضي والمضارع متشابهتين . واما الدور الثاني فهو الدور الذي وقع فيه الاختلاف بينهما . واما الدور الثالث فهو ان يختص كل باب بمعنى او معنيين او اكثر؛ ولكن جاء التدوين فوقف في وجه الدور الثالث وان كانت قد ظهرت طلائعه حينئذ كما تقدم .. وتتميز صيغة المضارع عن صيغة الماضي بموضع علامة الفاعل فان كانت في آخر الفعل فالفعل ماض وان كانت في اوله فالفعل مضارع، ولا نستطيع ان نعتمد في التمييز بينهما على ماوقع في الصيغتين من الاختلاف لانهما قد تتشابهان كما تقدم ...

***

العلامات التي نضعها في اول المضارع اربع فكيف تكفي لاربعة عشر شخصاً ؟ كان يجب ان يكون لكل شخص علامة خاصة تميزه عن غيره كما رأينا في الماضي؛ وربما كان الفعل المضارع لاول عهده يصرف

بالعلامات الاربع : وهي الهمزة والنون والتاء والياء ؛ اما الهمزة فأخوذة من انا ، واما النون فمن نحن ، واما التاء فمن انت او الهاء من هي بعد ان قلبت تاء ، واما الياء فماخوذة من الهاء في هو بعد ان مرت على ادوار مختلفه مجهوله ... ولما وقع الاشتراك بين عدة اشخاص في الياء لانه يشترك فيها اربعة اشخاص ، وفي التاء لانه يشترك فيها ثمانية ، لم يكن بد من مميز آخر لئلا يقع الالتباس ، فوضعوا هذه المميزات في آخره ، فجعلوا للمثنى الفاً ونوناً ، وللجمع المذكر العاقل واواً ونوناً ؛ وللجمع المؤنث نوناً ؛ وللمخاطبة ياء ونوناً ؛ وكلها ماخوذة من اصول قديمة للضمائر المنفصلة لاتزال محفوظة في اللغتين العبرية والسريانية .

***

عرفنا ان علامة الفاعل تستعمل لغرضين للفاعل والزمان ؛ والمقصود من بيان الفاعل معرفة جنسه وشخصه وعدده ؛ فاذا كان المضارع بعلامة واحدة مثل اذهب ونذهب ويذهب وتذهب ، فكل علامة تدل على اربعة اشياء : الزمان ، وجنس الفاعل ، وعدده ، وشخصه ، مثل الياء في يذهب والتاء في تذهب ، فالياء تدل على ان الزمان حاضر ، وان الفاعل مذكر ، وانه مفرد ، وانه غائب .. والتاء في انت تذهب تدل على ان الزمان حاضر ، وان الفاعل مذكر ، وانه مفرد ، وانه مخاطب . الا الهمزة والنون فانهما تدلان على ان الزمان حاضر ، وعلى عدد الفاعل وشخصه ؛ ولا تدلان على جنسه لانهما تستعملان للمذكر والمؤنث على السواء ..

واذا كان المضارع بعلامتين في اوله وآخره فما ينقص في الاولى تكمله الثانية وعليه فالياء في هو يذهب وهما يذهبان وهن يذهبن ليست متساوية في الدلالة ، فالياء في يذهب تدل على اربعة اشياء : على الزمان وجنس الفاعل

وعدده وشخصه • وفي يذهبان تدل على الزمان وجنس الفاعل وشخصه، ولكنها لاتدل على عدده، لانها موضوعة للمفرد •وهي هنا للمثنى والياء في يذهبن تدل على شيء واحد وهو الزمان ولا تدل على جنس الفاعل لانها موضوعة للمذكر وهي هنا للمؤنث، ولا تدل على عدده لانها موضوعة للمفرد وهي هنا للجمع، ولاتدل على شخصه لانها موضوعة للغائب وهي هنا للغائبات، فاغنت عنها في ذلك كله النون في الاخر •واما النون في انتن تذهبن فلا تدل على ماتدل عليه النون في هن يذهبن، لان التاء في انتن تذهبن تدل على ان جنس الفاعل مؤنث، لان التاء تستعمل للمذكر والمؤنث وان شخصه مخاطبه لان التاء تستعمل للمخاطب والمخاطبة، فلا يبقى الا العدد فتدل عليه النون • فالنون في هن يذهبن تدل على جنس الفاعل وعدده وشخصه، والنون في انتن تذهبن لاتدل الا على العدد •• ومع وجود العلامتين في اول المضارع وآخره فان بعض صوره تتشابه مثل انتما تضربان للمخاطبين • وانتما تضربان للمخاطبتين، وهما تضربان للغائبتين • لذلك لابد من الاعتماد على القرينة في التمييز بين الصورة الواحدة والاخرى •

***

وعلامة الفاعل في اول المضارع كانت في الاصل تحرك بالفتح، او الكسر، او الضم، بدون ضابط • ثم استقرت على الفتح لانه اخف الحركات، وانما تضم في الافعال الرباعية لتتميز عن الفعل الثلاثي • ولا يقع التباس في مضارع الثلاثي والرباعى الا في وزن « افعل » فان مضارع رجع يرجع، ومضارع ارجع يرجع، ولولا ضمة الياء في مضارع ارجع لالتبس بمضارع رجع، ثم ضمت في بقية الافعال الرباعية طرداً للباب ••

وقد ورد في بعض لغات العرب كسر حرف المضارعة في باب علم وما افتتح بهمزة الوصل وعليه يروى قول الراجز .

قلت لبواب لديه دارها　　　تئذن فاني حمها وجارها

وقرىء يوم تبيض وجوه وتسود وجوه واياك نستعين بكسر حرف المضارعة في الجميع. ولا يزال حرف المضارعة يكسر في «إخال» على لغة طي..

***

ويقسم الفعل المضارع باعتبار آخره الى ثلاثة اقسام: الافعال الاربعة وهي الافعال المجردة عن علامة في الاخر وهي يفعل وتفعل وافعل ونفعل، والافعال الخمسة وهي الافعال التي تلحقها الالف والواو والياء مع نون الاعراب وهي يفعلان تفعلان يفعلون تفعلون تفعلين، والفعلان وهما اللذان تلحقهما نون الاناث وهما يفعلن وتفعلن . وكلها معربة الا الفعلين ، وقد اختلف في اسباب اعرابها مما لا حاجة الى ذكره ، والحقيقة ان الاعراب لم يقع في الفعل المضارع الا عن تلاعب اللسان . فكان العرب يرفعونهُ وينصبونهُ ويجزمونهُ اتفاقاً ، ثم جعلوا يرفعونه في مواضع مخصوصة ، وينصبونهُ او يجزمونه في مواضع أُخرى . . والفرق بينه وبين الاسم في الاعراب ان الاسم يخفض واما الفعل فيجزم ، فلماذا جزم بدلا من الخفض ، جزم بقصد التأكيد ولذلك جزم في الطلب نحو ليذهب ولا تذهب لان الجزم انسب للطلب وادل على التأكيد ، وانما جزم في النفي بلم ولما مع انه غير طلبي فلتأكيد النفي ، فلم يضرب ادل على التأكيد من ماضرب ولذلك سمي السكون في ليذهب ولاتذهب ولم يذهب جزماً اي قطعاً . فالسكون على الطاء في أطلب سكون وعلى الباء سكون وجزم وبعبارة أخرى ان السكون لفظي اي ابطال الحركة والجزم معنوي اي

تأكيد . ثم ان الجزم قد يكون بغير سكون كالجزم في الافعال الخمسة والافعال الناقصة، لان حذف النون من الافعال الخمسة واستبدال الحركة الطويلة بحركة قصيرة في الافعال الناقصة تقصير الكلمة، والتقصير يناسب الجزم والتأكيد، ومن هنا يظهر ان للجزم سبباً معقولا لانجده في الرفع او النصب والله اعلم .

— الامر

لم يكن في اللغة العربية صيغة خاصة للامر ، بل كنا نستعمل المصدر للامر، كما لانزال نستعمله الى الان مثل صبراً رفقاً، والمصدر المستعمل امراً لا يصرف مع الضمائر ، بل يستعمل للجميع على السواء ، لان الفاعل يعرف من توجيه الكلام الى المخاطب . ثم مع الزمان توالدت في اللغة العربية صيغة للامر وهى ماخوذة من المضارع . فلماذا اخذنا صيغة الامر من المضارع ولم نأخذها من الماضى؟ لذلك سببان: الاول ان صيغة المضارع مشتركة بين الحال والاستقبال ، واما صيغة الماضى فموضوعة للماضى ، ولان الامر لايدل الاعلى الاستقبال ، كانت صيغة المضارع انسب له . الثاني للمضارع ثلاث حالات اعرابية رفع ونصب وجزم ولان الجزم انسب للامر اخذنا له المضارع المجزوم ، وعلى ذلك يكون الامر معرباً لامبنياً . وليس له الا حالة واحدة وهى الجزم على رأي الكوفيين . وليس جزمه بناء كما يقول جمهور الصرفيين .

ولم يكن للامر في اصل استعماله علامة للفاعل . فكان يعرف الفاعل من القرينة وهى توجيه الكلام الى المخاطب . فاذا قلت لشخص واقف امامى «اذهب» عرف الفاعل بدون علامة خاصة له، لان المقصود من العلامة بيان الفاعل ، فاذا كان الفاعل معروفا من توجيه الكلام

استغنينا عنها . . و كما استغنينا عن علامة للفاعل استغنينا عن علامة للزمان؛ لان هناك قرينة تدل عليه وهي الطلب . اذ العمل الذي نطلبه لايكون الا في المستقبل بعد الطلب . اذاً فالفاعل في الامر يعرف من قرينة توجيه الكلام الى المخاطب . والزمان يعرف من قرينة الطلب . . فلما اخذنا صيغة المضارع المجزوم حذفنا العلامة من اوله لاستغنائنا عنها . . ثم لما تولدت هذه الصيغة في اللغة؛ وكان العرب يميلون الى الدقة في البيان اضافوا الى الامر علامات للمثنى ، ولجمع المذكر العاقل ، ولجمع المؤنث ؛ وللمخاطبة ، وان كانت هناك قرينة معنوية تغني عن هذه العلامات كما تقدم . وتركوا الامر للمخاطب بدون علامة لفظية اكتفاء بالقرينة حسب الاصل . . وقد اختصت صيغة الامر بالشخص المخاطب في حالة الاثبات ولكن اذا اردنا توجيه الامر الى غير المخاطب استعملنا صيغة المضارع المجزوم مع اللام للامر المثبت ، وان جاز استعمال هذه الصيغة للمخاطب وغيره؛ ومع لا الناهية للامر المنفي فقلنا ليذهب ولا يذهب . . وقد امتاز الامر بانواع كثيرة أجمل الكلام عنها خاتمة هذا البحث

(١) الامر بالصيغة نحو قم اذهب اشرب

(٢) الامر باللام نحو ليقم ليذهب ليشرب

(٣) « بلا الناهية نحو لاتقم لاتذهب لاتشرب ويقال له نهي

(٤) « بالمصدر نحو رفقاً صبراً مهلًا

(٥) « المركب نحو تعال نذهب قم ننطلق قفا نبك

يقول النحويون ان المضارع جزم في هذه الجمل على تقدير شرط اي ان تجيء نذهب ان تقم ننطلق ان تقفا نبك، على ان هذه الجمل لايصح فيها الشرط لان الشرط يقتضي ان يكون الثاني نتيجة عن الاول

وهنا لايصح هذا التقدير، لان الذهاب ليس نتيجة المجيء ولان الانطلاق ليس نتيجة القيام ولان البكاء ليس نتيجة الوقوف . وانما يصح تقدير الشرط في مثل أدرس تحفظ اجتهد تنجح ، فان الحفظ نتيجة الدرس والنجاح نتيجة الاجتهاد. فالفرق واضح بين التمثيلين . ولم نجد في كتب النحو تنبيهاً على ذلك . وانما جزم المضارع في تعال نذهب وقم ننطلق وقفا نبك وامثالها لانه بمعنى الامر بدليل انك تستطيع ان تستبدله بامر فتقول لنذهب لننطلق لنبك ، والجزم انسب للامر ، لذلك يجب ان يجزم المضارع في مثل قول الشاعر .

تعالوا بنا نطو الحديث الذي جرى

أي لنطو ، وان ورد هذا البيت في ديوان الشاعر بصورة الرفع .

(٦) اسم فعل مرتجلا كصه اى اسكت ، اومنقولا عن مصدر كرويد اي امهل ، او عن ظرف كدونك أي خذ ، اوحرف جر نحو عليك أي الزم .

(٧) اسم فعل على وزن فعال بكسر اللام كنزال أي انزل ، وحذار أي احذر للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، أي بدون علامة للفاعل حسب الاصل كما تقدم . وهو يبنى من كل فعل ثلاثي تام متصرف .. وشذ من مزيد الثلاثي كدراك معا ولا عن ادرك ، وبدار معدولا عن بادر .. واشذ منه الرباعي نحو (قالت له ريح الصبا قرقار) اي قالت ريح الصبا للسحاب قرقر بالرعد أي صب ما عندك من الماء مقرونا بصوت الرعد .

(٨) التحضيض وهو الطلب العنيف نحو هلا تستغفر الله ، والا تستغفر الله بالتشديد ، ولولا تقري الضيف ، ولو ما تجيب الداعي .

(٩) العرض وهو الطلب اللين واداته الا المخففه نحو الاتحبون

ان يغفر الله لكم ، ولو نحو لوتنزل عندنا .

(١٠) الامر بالهمزة نحو اتأكل اي كل .. وقد جاء المضارع في التحضيض والعرض والامر بالهمزة مرفوعاً مع انه كان يجب ان يكون مجزوماً قياساً على كون الجزم انسب للامر ، ولعل ذلك لان الجزم أي التأكيد تدل عليه الاداة ، فلم تبق حاجة لجزمه والله اعلم .



الحروف الهجائية

لاأتعرض هنا للكلام عن اساليب تعليم الحروف الهجائية . فاني سأتكلم عنها في كتاب « اساليب التعليم » الذي سيظهر بعد حين . وسيكون الكتاب الاول من كتب القراءة التى اشتغل بوضعها الان مبنيا على احدث تلك الاساليب .. ولا للكلام عن مخارج هذه الحروف وقسمتها الى طوائف كالحروف المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والرخوة، والمتوسطة، والمطبقة، والمنفتحة، والمستعلية، والمستفلة او المنخفضة؛ وغير ذلك مما تكفل به علم الصرف والتجويد . ولا غنى لمن يتولون تدريس اللغة العربية في الفصول الابتدائية عن معرفته ومراعاته اقامة للفظ على الوجه الصحيح .. ولا للكلام عن صور هذه الحروف وكيفية تركيبها خطاً، مما وفاه حقه كثيرون منهم « القلقشندي » في كتابه « صبح الاعشى » ولا غنى لاساتذة الخط ولمن يضعون كتباً للقراءة عن الاستبصار به .. ولكنني سأقتصر على ثلاثة ابحاث أخرى : في الاول اتكلم عن الحروف الهجائية العربية نفسها، وفي الثاني اقابلها بغيرها واذكر بعض مزاياها . وفي الثالث اتكلم عن تاريخها و الاطوار التي مرت بها الى ان وصلت الى صورتها الحاضرة .

القيت هذه المحاضرة في الجامعة المصرية في شهر فبراير من سنة ١٩٢١ ولم تنشر .

البحث الاول

الحروف الهجائية العربية

تسمى الحروف التي تتركب منها الالفاظ حروف الهجاء، اوحروف التهجي ، او حروف المبنى ، او حروف المعجم ، ويسميها سيبويه والخليل بن احمد حروف العربية . وقد اختلف الصرفيون بين ان تكون ثمانية وعشرين حرفاً او تسعة وعشرين حرفاً ، ولكنها في الحقيقة تقسم الى اربعة اقسام : حروف مفردة ، وحروف مركبة ، وحركات ، وضوابط

الحروف المفردة

أ . ب . ت . ث . ج . ح . خ . د . ذ . ر . ز . س . ش . ص . ض . ط . ظ . ع . غ . ف . ق . ك . ل . م . ن . ه . ة . و . (مثل الواو في ثوب) ي . (مثل الياء في بيت) وعددها تسعة وعشرون حرفاً .

الحروف المركبة

الحروف المركبة نوعان: اما ان تكون مركبة من حرف وحركة وهي

آ : اي همزة والف في نحو مآكل واصل كتابتها هكذا « أ ا »

لا: اي لام والف

واما ان تكون مركبة من حركة وحرف وهي

تنوين ضم وعلامته ـٌ

تنوين فتح وعلامته ـًا بالف او ـً بدونها

تنوين كسر وعلامته ـٍ

فالاول مركب من ضمة ونون ، والثاني من فتحة ونون ، والثالث من كسرة ونون ، ولكنهم لم يكتبوا النون استغناء بمضاعفة الحركة عنها .. وعدد الحروف المركبة على نوعيها خمسة

الحركات

وهي تقسم الى ثلاثة اقسام : قصيرة ، وطويلة ، وممدودة

القصيرة = الضمة والفتحة والكسرة

الطويلة = الالف

الواو مثلها في عود

الياء مثلها في عيد

الممدودة : وهي الالف والواو والياء اذا وقعت قبل همزة اوشدة فالالف في ماء ومادة اطول من الالف في باب ، والواو في وضوء وقوصّ مجهول قاصّ اطول من الواو في عود ، والياء في بريء اطول من الياء في عيد . وعددها على اختلاف اقسامها تسع ،

الضوابط

السكنه او السكون وعلامته ـْ

الوصل = ٱ وهي مأخوذة من كلمة صل

المد = آ = = = = = مد

التشديد = ّ = = = = = شد

فعدد الجميع من حروف مفردة ، وحروف مركبة ، وحركات ، وضوابط سبعة واربعون حرفاً . الا ان البعض منها قد يكتب على اشكال مختلفة معروفة .

وهنا استدعي انتباه الاساتذة الكرام الى النقاط الاتية .

(١) لايزال الصرفيون يعتبرون الالف و الواو والياء حروفاً . والحقيقة ان الالف ليست الا حركة ، واما الواو والياء فمن الاشكال المشتركة بين الحروف والحركات، فالواو في ثوب حرف وفي عود حركة ويقابل الاول عند الافرنج حرف w والثاني حرف o والياء في بيت حرف وفي عيد حركة . ونجد مثل هذا الاشتراك في الحروف الافرنجية فحرف y يكون تارة حرفاً مثله في كلمة « yes » وتارة حركة مثله في كلمة truly وحرف w يكون تارة حرفا مثله في كلمة was وتارة حركة مثله في كلمة saw

(٢) الالف والواو والياء قد تكون حركات طويلة مثل الالف في باب ، والواو في عود ، والياء في عيد . وقد تكون حركات ممدودة اذا وقعت بعدها همزة اوشدة مثل الالف في مآء ومادة ، والواو في وضوء وقوص مجهول قاصّ ، والياء في بريء كما تقدم . وقدكان يجب ان يكون للحركات الممدودة شكل خاص لها غيره للحركات الطويلة . وقدتكون كراسي للهمزة مثل رأس وسؤل وبئر .

(٣) اصطلحوا على كتابة الالف الممدودة الواقعةقبل همزةبرسم مدةفوقها مثل مآء وسمآء . وكان يجب ان توضع علامة المد على الحركات الممدودة سواءٌ كانت الفاً ام واواً ام ياءً ، وسواءٌ وقعت قبل همزة ام قبل شدة حسب اصطلاح القرآن . ولكنهم اقتصروا عليها مع الالف الواقعة قبل همزة لكثرةورودها في الكلام . . ثم لما كان موضع الالف الممدودة معلوماً جازاهمال هذه المدة في الخط اعتماداً على فطنة القارى. . ولكن هناك موضعاً آخر لكتابة المدة لايجوزفيه اهمالها وهي المدةالتي تكتب فوق الهمزة التي بصورة الالف نحو مآ كل لانها هنا ليست للمدمثلها في مآء وسماء وانما هي

الف طويلة مثلها في مدارس ومكاتب . وكان حقها ان تكتب هكذا مأاكل، ولكنهم استبشعوا ان تتوالى الفان في الكتابة فكتبوا الثانية فوق الاخرى فاشبهت المدة وهي ليست كذلك . ولهذا يكون قولهم ان المدة مقتطعة من كلمة مدّ — لانهم كانوا يكتبون فوق الالف الممدودة لفظة « مدّ » اشعاراً بانها ممدودة تمييزاً لها عن الالف الطويلة، ولفظة مد تشبه المدة — لا يصدق الا على المدة التي تكتب فوق الالف الممدودة الواقعة قبل همزة مثل مآء لا على المدة التي تكتب فوق الهمزة التي بصورة الالف مثل مآكل . وتكون الالف الممدودة مع المدة فوقها مثل مآء حرفاً مستقلًا بسيطاً ، والهمزة مع المدة فوقها في مثل مآكل حرفاً مركباً من همزة والف . . وكان يجب ان يذكروا هذا الشكل بين الحروف ويسموه « همزة الف » كما ذكروا شكل كتابة اللام مع الالف وسموه لام الف. الخلاصة ان المدة في مثل مآء هي مدة مقتطعة من كلمة « مدّ » وفي مثل مآكل هي ألف. ولا يجوز في كتب القراءة ان يجمع بين المدتين في مكان واحد.

(٤) الالف تكتب على اربعة اشكال غير شكلها مع اللام . فهي تكتب قائمة مثل الالف في عصا، وافقية مثل الالف في مآكل، وبصورة الياء بدون نقطتين مثل الالف في فتى ، والفاً صغيرة فوق الحرف لا بعده في بعض الكلمات مثل الالف في الله وذلك . وكلها تسمى الالف الهاوية أي ذات الهواء او الملساء أي اللينه . ولكن لا يزال كثيرون حتى بعض المؤلفين يسمون الالف في مثل فتى الفاً مقصورة وهذا خطأ. لان الالف المقصورة هي الالف على كل اشكالها الاربعة السابقة. وسميت مقصورة لانها اقصر في اللفظ من الالف الممدودة في مثل حمراء ومادة . وان جاز

في بعض المواقف مد الالف واختيها الواو والياء في غير مواضــع المدّ كما تمد الالف في « لا » اذا اردت تأكيد النفي ، وكما يمد المنادي صوته في اداة النداء « يا» اذا كان المنادى بعيداً او غير منتبه ، وكما تمد الالف في لفظة واسع في قولهم « الله واسع الرحمة » والياء في لفظة كبير والواو في لفظة غفور في قولهم « الله كبير غفور » للتأثير على السامعين في مواقف الوعظ وغير ذلك . ولكن هذا المد لا يكون الا اذا اقتضاه الحال ٠

(٥) اذا اعتبرنا الالف التي هي اول الحروف الهجائيــة همزة ، فقد كان يجب ان تكتب فوقها همزة هكذا « أ » وتسمى همزة لا الفاً لان الالف ليست الا كرسياً لها ٠ واذا اعتبرناها حركة فنكون قد اهملنـا ذكر الهمزة بين الحروف ٠ على انه يظهر من ترتيب الحروف الهجائية على طريقة نصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر العدواني ، في زمن عبد الملك ، وهو الترتيب المتبع الآن ، انهما ابتدآ بالالف والباء لانهما اول الحروف في ابجد . ولكن الحرف الاول في ابجد هو همزة لا الف لان الالف لا تقع ابتداء . ولعلها سميت الفاً لانها قد تكتب على الالف في بعض المواضع كما تكتب على الواو والياء في مواضع أخرى ، فيكون ذلك على حد تسمية الكل باسم الجزء ، وتكون الالف اسم شكلها لا اسم حكمها ٠ اما سيبويه فانه ابتدأ في ترتيبه بالهمزة بدون كرسي ٠ ثم ذكر الالف وحدها بين الحركات الطويلة في آخر الحروف ٠٠ ومن الترتيبين يظهر ان الحرف الاول من الحروف الهجائية هو همزة لا الف ٠ اما الالف التي هي حركة فقد ذكرت في الترتيب الاول في لام الف ٠٠ وفي الترتيب الثاني وحدها ٠



البحث الثاني

في مقابلة الحروف العربية بغيرها

للحروف العربية مزايا عديدة اذكر منها ما يأتي :

(١) انها تكتب وتقرأ من اليمين الى اليسار كالسريانية والعبرية وسائر اللغات التي اقتبست الحروف العربية بخلاف الحروف الافرنجية فانها تكتب من اليسار الى اليمين ، وبخلاف الحروف الهيروغلوفية فانها وان بدئ بها من اليمين في اول سطر يجوز ان يبدأ بالسطر الثاني من اليسار وهكذا يبدأ كل سطر من حيث انتهى سابقهُ وعليه قول الشاعر .

لصاحب الاحباس برذونةٌ بعيدة العهــد من الربط

تمشي الى خلف اذا مامشت كأنهـا تكتب بالقبطي

وبخلاف الحروف الصينية فانها تكتب من اعلى لاسفل ...

ومن الغريب اصطلاح الافرنج على الكتابة من الجهة اليسرى دون اليمنى ، على حين نراهم في كل امورهم واعمالهم يجرون من اليمين الى اليسار ، فمنازل الاعداد عندهم تتدرج من اليمين الى اليسار وان كانوا يقرأونها بالعكس ، وعلى حين ان الرسام او النقاش اذا اراد ان يبدأ بعمله ابتدأه من اليمين ولاسيما اذا كانت الرسوم متقابلة . بل « اذا كان امامك درهمان على

مائدة، وكلاهما على بعدٍ متساوٍ منك، واردت ان تتناول واحداً منهما فان كنت ايمن انقدت بالسليقة الى ان تأخذ الذي الى جهة يمينك » كما قال بعض العلماء في بحث تحت عنوان « الاعسر والايمن ». وكان ذلك كذلك لان نحو ٩٨ في المئة من الناس يعملون باليد اليمنى دون اليسرى، وقد اثبت بعض علماء منافع الاعضاء ان ذلك امر فطري في الانسان ناشيء عن تركيب البنية مما ليس من شأننا الخوض فيه، وانما يهمنا هنا ان نقول ان اصطلاح العرب اقرب الى الطبـع واسهل تناولا .. فاذا استسهل الافرنجي الكتابة من الجهة اليسرى بحكم العادة والتربية والتعليم، استسهلناها من الجهة اليمنى بحكم العادة والتربية والتعليم وفوق ذلك بحكم الفطرة .

(٢) من مزايا الحروف العربية انهـا قليلة الاشكال بالنسبة الى الحروف الافرنجية مع انهـا اكثر عدداً .. الحروف العربية تقسم الى قسمين : كبيرة وصغيرة . فاذا تعلم التلميذ الحروف الكبيرة عرف الصغيرة لانها مقتطعة منها . الا حروفاً قليلة ليس لها الا صورة واحدة وهي الالف والواو والدال والذال والراء والزاي والطاء والظاء . فكأن القسمين قسم واحد ، ولا فرق في ذلك بين حروف الكتابة وحروف الطباعة .. واما الحروف الافرنجية فتقسم الى قسمين : حروف طباعة وحروف كتابة ، وكلٌّ منهما يقسم الى قسمين آخرين : حروف كبيرة وحروف صغيرة ، ولا شبه بين الواحد والآخر في الجميع فتكون الحروف الافرنجية مضاعفة اربعة اضعاف .

(٣) اذا تتابع حرفان متجانسان او متقـاربان في المخرج في كلمة واحدة وكان اولهما ساكناً والثاني متحركاً كتب الحرفان حرفاً واحداً

فوقه شدة للاختصار ، واما الافرنج فانهم يدغمون الحروف المتجانسة او المتقاربة ولكن بتكرار الحرف اذا كان من جنس الحرف الذي قبله او باللفظ اذا كان قريباً منه وليس عندهم علامة على التشديد او الادغام .

(٤) العرب يكتبون الحرف الكبير من حروفهم في آخر الكلمة ايذاناً بأن الكلمة انتهت ، واما الافرنج فيكتبون الحرف الكبير في اول الكلام ، او في اول بعض كلماتهم ولا دليل على ان الكلمة انتهت الا فصلها عن الكلمة التي بعدها فيضطرون الى ترك جزء من القرطاس خالياً .

(٥) ان الكلمة في اللغة العربية تأخذ فسحة اصغر من الفسحة التي تأخذها الكلمة الافرنجية لاسباب (١) لان حروفنا ادق شكلاً ولاسيما الحروف الابتدائية والوسطى (٢) لاننا نكتب الحرفين المتجانسين او المتقاربين في المخرج ، اذا تتابعا في كلمة واحدة وكان اولها ساكناً والثاني متحركا ، حرفاً واحداً فوقه شدة كما تقدم (٣) لان حروفنا متصلة بعضها ببعض الا حروفا قليلة ، واما حروفهم فكلها منفصلة (٤) لان الحركات القصيرة عندنا وهي الضمة والفتحة والكسرة ، والضوابط وهي السكنة والوصلة والمدة والشدة ، والتنوينات على اختلاف انواعها ، تكتب كلها فوق الحرف اوتحته ، لا في صلب الكلمة ، وقد نستغني عنها لان لها مواضع معلومة مطردة . بخلاف اللغات الافرنجية فانه لابد من رسم حركاتها في صلب كلماتها ، لانها لا تجري على قياس مطرد .

(٦) قال ابن فارس « انفردت العرب بالهمز في عرض الكلام مثل سأل وقرأ ولايكون في شيء من اللغات الا ابتداءً » ولكن مع وجود الهمزة ابتداءً في اللغات الافرنجيه ، لم يضعوا لها صورة بين حروفهم . فهم يقرأون همزة القطع ولايكتبونها ، ويسقطونها في درج الكلام وليس

عندهم علامة للوصل . فهمزة القطع عندهم واردة في ما كان من كلماتهم مبدوءاً بحركة مثل on او at او it فيلفظونها ولايكتبونها اي انهم استخدموا الحركة لامرين للهمز وللحركة ، وكان الحق ان نقرأ هذه الكلمات بالاشمام وهو عبارة عن الاشارة بالشفاه الى الحركة من غير تصويت ، اوبالروم وهوعبارة عن حركة مختلسه مخفاة (راجع الاشمام والروم في القاموس) اوكان يجب ان يضعوا قبل كل حركة في هذه الكلمات وغيرها حرفاً يدل على الهمز . كما نفعل نحن . فاننا نكتب كل كلمة من هذه الكلمات المتقدم ذكرها بثلاثة احرف وهم يكتبونها بحرفين فالكلمة الاولى نكتبها هكذا « أُن » أي بهمزة وضمة ونون . والكلمة الثانية هكذا « أَت » أي بهمزة وفتحة وتاء ، والكلمة الثالثة هكذا « إِت »أي بهمزةو كسرةوتاء .. بلهم اذا ارادوا ان يكتبوا كلمة ـ سأل ـ العربية مثلاً كتبوها هكذا sa-al فهذا الخط الصغير بين الحركتين ناب عندهم مناب الهمزة ..

واما همزة الوصل عندهم فهي ذات همزة القطع اذا وقعت في درج الكلام فهم يلفظون هذه الكلمات -put it on- موصولة معاً بدون ان تكون هناك علامة للوصل . كما كان يفعل العرب قبل ان اصطلحوا على كتابة علامة الوصل .. فتكون الحروف العربية من هذه الجهة اتم من الحروف الافرنجية ... والشأن هنا ليس في اختصار الكتابة بل في ضبطها ، وما كان احراهم لو كانوا يتوخون الاختصار في الكتابة ان يتركوا الحروف الكثيرة التي يكتبونها ولايقرأونها ـ ولاسيا فياللغة الانكليزية ـ بحجة انها كانت فيوقتٍ ما ملفوظة ، فهي في كلماتهم كالاعضاء الاثرية في جسم الحيوان . وكانت القراءة عندهم مع هذه

الزيادات على طريقة « انظر وقل » -look and say- أي انهم يقرأون بدون ان يتنبهوا لكل حرف من حروف الكلمة بل يرون لها صورة مجملة ، كما ان من ينظر الى اخيه لا يدقق نظره في شكل عينيه وحاجبيه وتقاطيع وجهه ، بل يرى له صورة مجملة تنطبق على الصورة الكلية التي في ذهنه. ولسنا ننكر عليهم ان القارىء الحاذق في كل لغة يقرأ الكلمات ولا يتهجى الحروف . فقد تكون الكلمة مغلوطاً فيها بزيادة او نقصان فيقرأها على الوجه الصحيح بدون ان يتنبه الى ما فيها من الغلط . وهذا من غرائب النظر فقد يصور لك الاشياء بغير صورتها ، يريك الصحيح خطأً والخطأ صحيحاً والصغير كبيراً والكبير صغيراً ، وهذا سر اكثر ما يقع من الاغلاط المطبعية. ولا ننكر عليهم ايضاً ان الكاتب في كل لغة ، يكتب الكلمات كما اعتادت يده كتابتها لا كما يتهجاها . قد تسأل الانكليزي كيف تتهجى الكلمة الفلانية فلا يعرف الا اذا اخذ قلماً وكتبها بسرعة واذا تمهل في الكتابة فقد يخطىء . ولكن ذلك كله لا ينفي ان الكتابة المضبوطة اسهل تناولاً واضمن للصحة في القراءة والاملاء . . فالكتابة عندهم من هذه الجهة اشبه بالكتابة الصينية التي هي كتابة اشكال ورموز يدل بها على المعاني المختلفة ، لا كتابة حروف يتركب منها لفظ الكلمات وقد حاول الامير كيون بتر هذه الاعضاء الاثرية من جسم كلماتهم ولكنهم لم يوفقوا . . ويستثنى في اللغة العربية بعض كلمات تكتب فيها بعض الحروف ولا تقرأ او تقرأ ولا تكتب ، وهي قليلة لا يعتد بها .

وهناك فرق آخر وهو ان همزة الوصل عندنا محصورة في مواطن معدودة ، واما همزة الوصل عندهم فهي كل همزة وقعت في درج الكلام

كما رأيت ، فلغتهم من هـذا القبيل كلغة قريش الذين كانوا يكرهون الهمزة ، قال عليٌّ « نزل القرآن بلغة قريش وليسوا باصحاب نبر ، ولولا ان جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ماهمزنا » لان للهمزة نبرة في الحلق تجري مجرى التهوع . . وقد كاد العرب انفسهم يلغون كل همزة في درج الكلام اي الهمزة الابتدائية اذا سبقتها كلمة ، وكل همزة في عرضه اي الهمزة الواقعة في وسط الكلمة او آخرها . فقد وصلوها في مواطن الوصـل المعروفة ، واجازوا للشاعر ان يصل همزة القطع عند الضرورة كان يقول في لو أن لو ان . ولولا القليل لوصلوا كل همزة في الشعر والنثر .. واوجبوا ابدالها اذا سكنت بعد همزة فان كانت حركة الهمزة الاولى فتحة ابدلت الثانية الفاً نحو آثر فان اصلها أَأْثر ، وان كانت ضمة ابدلت واواً نحو أُوثر فان اصلها أُؤْثر ، وان كانت كسرة ابدلت ياءً نحو ايثار فان اصلها إِئْثار .. واجازوا فيها الابدال والتحقيق اذا انضمت الهمزة الثانيـة او انكسرت وانفتح ما قبلها فاجازوا في مضارع امَّ ان تقول أَؤُمُّ أَومُّ . وفي مضارع أَنَّ ان تقول أَئِن واينُّ وفي جمع امام ان تقول أئمة وايمة .. بل اذا سكنت بعد غير الهمز فان كان ماقبلها مفتوحاً ابدلت الفاً فتقول في رأْس ، راس وان كان مضموما ابدلت واواً فتقول في سؤل سول ، وان كان مكسوراً ابدلت ياء فتقول في بئر بير .. بل اجازوا الابدال والتحقيق اذا تحركت بعد غير الهمزة فقالوا في تأمم تيمم اي توضأ بالتراب والثانية اشيع وان كانت الاولى هي الاصل . وقالوا في قرأ قرا وفي قرى ، قري وفي التجرؤ التجري كأنه مصدر تجرى لا تجرأ ، وبسبب ذلك كانت القاعدة الغالبة لكتابة الهمزة « ان تكتب بحسب (ماتلين) » اي اذا كانت تلين بالواو كتبت علي واو او بالالف كتبت على الف او بالياء

كتبت على ياء.. وكل همزة على الف او واو اوياء تهمز وتلين على الغالب، فهي على اشكالها هذه مثل التاء المربوطة التي يجوز فيها امران اما تكون تاء وان تكون هاء. ولولا القليل لوجب ابدال الهمزة وبطل تحقيقها في كل المواطن التي ذكرناها. وقد اجازوا قصر كل ممدود فقالوا في سماء سما وفي حمراء حمرا بل قد ابتدأ الغاء الهمزة في عرض الكلام في غير المواطن السابقة، من ذلك قولهم سل ولا تسل بدلا من اسأل ولا تسأل وقولهم في مضارع رأى وامره يرى رَ بدلا من يرأى إرأَ على الاصل مثل نأى ينأى إنأَ، وقولهم في الامر من اكل واخذ وامر كل وخذ ومر باسقاط الهمزتين معاً همزة الامر وهمزة الفعل. ومن ذلك انهم اجازوا حذف همزة التسوية فتقول سواءٌ عليّ أكان كذا ام كذا بالهمزة وسواءٌ علي كان كذا ام كذا بدونها.. وقد كانت قريش تنطق بالهمزة حرفاً بين الهمزة وبين حرف حركتها ويسمى هذا الحرف « بين بين » ... فانت ترى من كل ما اوردته لك من الامثلة ان اللغة كانت تتدرج الى الغاء الهمز في درج الكلام او عرضه، اما بالوصل، واما بالابدال، واما بالحذف. كما وقع في اللغة العربية العامية الا قليلاً.. واندثار بعض الاصوات في اللغات مألوف، فهذه اللغة الاشورية السامية يقال انها فقدت حروفها الحلقية منذ اربعة آلاف سنة.

(٧) ان لكل حرف في اللغة العربية صوتاً خاصاً له لا يتغير، كما ان لكل صوت حرفاً خاصاً له يدل عليه. اذ ان الاصل في الخط العربي ان يكون مطابقاً للفظ فتكتب كل كلمة كما ينطق بها، وينطق بها كما تكتب.. بخلاف بعض اللغات الافرنجية التي تصوّر الصوت الواحد بصور عديدة. فصوت الكاف يصوّر عندهم تارة بحرف k وتارة

بحرف q وتارة بحرف c وتارة بحرف x ممزوجاً بحرف s، او تجعل للحرف الواحـد اصواتاً عديدة مثل حرف s فانه ينطق به في بعض الكلمات سينا ، وفي غيرها شيناً ، وفي غيرها زاياً ، وفي غيرها صادا ..

(٨) ومن مزايا الحروف العربية ان للصوت المفخم فيها صورة خاصة له ، وللصوت الرقيق صورة أخرى مثل السين والصاد والتاء والطاء والدال والضاد والذال والظاء والكاف والقاف . بخلاف اللغات الافرنجية فان في بعضها حركات مفخمة وحركات رقيقة توضع بعد الحرف فيفخم او يرقق كما في اللغة الروسية . واما في غيرها فلا تجد الا حرفاً واحداً يستعمل تارة مفخما وتارة رقيقا بدون ضابط ، فحرف s في الانكليزية قد يكون رقيقاً مثله في sow وقد يكون مفخماً مثله في saw . وحرف d قد يكون رقيقاً مثله في do وقد يكون مفخما مثله في doll. وعليه فليس العرب وحدهم هم الناطقين بالضاد. وحرف L قد يكون رقيقاً مثله في low وقد يكون مفخماً مثله في law . وحرف c الذي يكون في بعض الكلمات كافاً ، قد يكون رقيقاً مثله في cold وقد يكون مفخماً مثله في called . وحرف t قد يكون رقيقاً مثله في tell وقد يكون مفخماً مثله في tall .

(٩) في اللغة العربية صور معلومه للحركات الطويلة وصور أخرى للحركات القصيرة، على حين لا تجد في بعض اللغات الاخرى قياساً مطرداً للحركات الطويلة والقصيرة فيها. فقد يضاعفون الحركة في اللغة الانكليزية بقصد تطويلها مثل food ولكنهم قد يقصرونها مع مضاعفتها مثل foot فضلاً عن ان الحركة الواحدة مثل a قد تستعمل مثل o كما في قولهم tall وقد تستعمل على لفظها في مثل هذا التركيب كما في shall وغير ذلك

(١٠) لعل الحروف العربية اجمل وقد حلت في التمدن الاسـلامي

محل التصوير والنقش من الفنون الجميلة فزينوا بها ابنيتهم ورياشهم وآنيتهم واسلحتهم واعلامهم، ومن زار الحمراء في اسبانيا رأى من الزخارف الكتابية على جدرانها ما يروعه ويغترق بصره، لأن الحروف العربية تتألف من كل الاشكال ففيها الخطوط المنحنية والمستقيمة والمستديرة والبيضية والهرمية والمجوفة والمحدَّبة والقوسية والمسننة والطويلة والقصيرة والذاهبة صعدا اونزولا، متصلة او منفصلة، فوقها اوتحتها من النقط والحركات والشدات والتنوينات والمدات وهمزات الوصل والقطع مما لاتشبهها فيه لغة أخرى، وقد كانوا في قديم الزمان يلونون كتابتهم بالوان مختلفة، فالسواد للحروف، والحمرة للشكل، والصفرة للهمزات، والخضرة لألفات الوصل فيخالها الرائي قطع الرياض او قطع الفسيفساء .. يقال انهم في بعض مدن اوربا في الاجيال الوسطى بنوا كنيسة على طراز شرقي، واذ احبوا ان يزينوا جدرانها على الطريقة الشرقية نقلوا فيما نقلوه من الزخارف اسماء الصحابه وهم يحسبونها زخارف ورسوما، فكنت ترى على جدران تلك الكنيسة اسم علي وحمزة وابي بكر وغيرهم كانها من اسماء قديسيها .. بل قد استخدم الشعراء بعض الحروف العربية في غزلهم على سبيل التشبيه، فشبهوا القامة الهيفاء بالالف، وعطفة الصدغ بالهمزة، والعارض باللام، والحاجب بالنون، والطرة المصففة من الشعر بالسين الواقعة غير طرف لانها تستوي على شكلها، وغير ذلك.

(١١) من الفروق بيننا وبينهم ان الافرنج قد يكتبون نصف الكلمة او جزءاً منها في آخر السطر والجزء الآخر في اول السطر الذي يليه، وهذا مكروه في اللغة العربية حتى الواو فانهم يحسبونها جزءاً من الكلمة فلا يفصلونها، بل كرهوا فصل المضاف عن المضاف اليه .

البحث الثالث

— تاريخ الحروف الهجائية وتطورها —

لم يصل الخط الى ماهو عليه الآن الا بعد ان قطع اربعة ادوار

(١) دور التصوير الذاتي . كانت تصور فيه الحوادث والأشياء التى تقبل التصوير فكانوا اذا ارادوا ان يكتبوا مثلاً كلمة اسد صوروا اسداً او كلمة وردة صوروا وردة .

(٢) دور التصوير الرمزي اصطلحوا فيه على اتخاذ رموز للمعاني التي لايمكن تصويرها كأن يرمز عن المحبة بالحمامة ، وعن البغض بالحية

(٣) الدور المقطعي ، وتدل فيه الصورة على اول مقطع من اسمها، اي ان الشكل الواحد بعد ان كان يدل على كلمة في الدور التصويري الأول استعمل في هذا الدور للدلالة على حرف وحركة معاً . فصورة لحصان التي كانت تدل على حصان استعملت للدلالة على مقطع مؤلف من حاء مكسورة ، وصورة الغراب التي كانت تدل على غراب استعملت للدلالة على مقطع مؤلف من غين مضمومة مثلاً : ولعل كتابة الهمزة عندنا على الألف والواو والياء ـ فتفتح مع الألف بدون ان تكون هناك فتحة ، وتضم مع الواو بدون ان تكون هناك ضمة ، وتكسر مع الياء بدون ان تكون هناك كسرة ـ من الأشكال المقطعية .

(٤) الدور الهجائي. استعملوا فيه المقاطع حروفاً مستقلة فصورة الحصان التي كانت تدل على حاء مكسورة مثلاً في الدور المقطعي استعملت في هذا الدور للدلالة على الحاء الساكنة ، وهو اقل الأدوار اشكالاً واسهلها استعمالا .

والفضل في وضع الحروف الهجائية راجع الى الفينيقيين ، واذا كانت الكتابة هي الجسر الذي مرت عليه الانسانية من الهمجية الى المدنية ، كان الفينيقيون اهم سبب في تمدن اكثر امم الارض ، واذا صح رأي فريق من المؤرخين انهم من العرب ابناء اسماعيل بن ابرهيم كان للعرب اليد البيضاء — التي لاتؤدى — على الانسانية جمعاء .

***

لاشك ان الكتابة في ادوارها الاولى كانت مقروءة من تلقاء نفسها ، حتى في اول الدور الهجائي ، لأن العلاقة بين الأصوات والنقوش الموضوعة لها كانت معقولة واضحة ، فكان كل الناس قراء . ولكن تلك العلاقة لم تلبث في الدور الهجائي ان اخذت تخفى شيئاً فشيئاً الى ان اصبحت دلالة النقش على الصوت اعتباطية ، وعادت الحروف الهجائية لا تؤخذ الا بالدرس ، فانقسم الناس بسبب ذلك الى أميين ومتعلمين .

***

والحروف العربية مثل غيرها من الحروف المعروفة اليوم اصلها فينيقي بدليلين : الاول ان اسماءها لاتزال الى اليوم فينيقية بعضها بلفظه

الأصلي وبعضها بتصرف قليل ، والثاني ان اكثر اشكالها تكاد تشبه الأشكال الفينيقية . ولا شك اننا استعملنا الحروف الفينيقية بعينها لأول عهدنا بالكتابة ، ثم مع توالي الأيام تغيرت حروفنا شيئاً فشيئاً حتى بعد الشبه بينها وبين الحروف الفينيقية ، وليس من السهل تتبع هذا التغير فنكتفي بالاشارة الى شيء منه على قدر ماتيسر لنا من الاشكال عند الطبع .

من ذلك الألف والواو والياء فقد كانت الالف في الاصل تكتب على شكل يشبه رأس ثور حسب اصل كتابتها في القلم الهيروغليفي ، وكانت الواو والياء تكتبان على شكلين آخرين لم نوفق الى صورة لكل منهما عند الطبع فاستبدلوا اشكالها هذه بأشكالها المعروفة ، والذي يخطر لنا انهم راعوا في هذا الابدال شكل الفم عند التلفظ بها فجعلوا الألف خطاً عمودياً هكذا «ا» لتكون فتحة الفم عمودية ، وجعلوا الواو على شكل دائرة ليكون الفم عند قراءتها مضموماً ، وهي تشبه حرف o الأفرنجية في الخط الا اننا زدنا لها ذنباً ولعله كان قصيراً في اول عهده ثم طولناه حسب عادتنا من مشق الحروف ومطها في أواخرها عند الاسراع في كتابتها ، بل ان الافرنج انفسهم يضعون مثل هذا الذنب لحرف o ولكن الفرق بيننا وبينهم ان الذنب عندنا في ذيل حرفنا والذنب عندهم في رأس حرفهم . وجعلوا الياء على صورة دائرة مستطيلة عرضاً لتكون على شكل الفم عند قراءتها ، ثم فتحوها قليلاً من الاعلى وجعلوا لها منقاراً ووضعوا نقطتين تحتها للتزيين او ليميزوها عن غيرها . فاذا صح استنتاجنا كانت الألف والواو والياء من ادل الحروف على شكل الفم ، بل كانت مقروءةً من تلقاء نفسها .

ثم ان هناك احرفا أخرى نقلوها عن شكلها الفينيقي الى شكل آخر صوروا به شكل الفم وهي الباء والتاء والثاء والنون . فأن الباء والتاء والثاء تشبه الفم المطبق ، وهو يكاد يكون كذلك عند التلفظ بها ، الا انه ينفرج قليلاً جداً عند خروج الصوت ، وقد كانوا يعتمدون في التمييز بينها على مايقتضيه المعنى ثم ميزوا بينهـا بالنقط ، ولعلهم اختاروا ان تكون نقطة الباء من تحتها اشارة الى حركة الشفة السفلى عند التلفظ بها ، ووضعوا للتاء نقطتين فوقها اما لمجرد التمييز واما اشارة الى اظهار سنين عند التلفظ بها ، والنقط تشبه الاسنان . وميزوا الثاء بثلاث نقط اشارة الى اظهار طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى ، واما النون فهي تشبهُ غار الفم وقد جعلوا في وسطها نقطة اشارة الى التصاق طرف اللسان بأعلى الحنك عند التلفظ بها وهي تشبه النون السامرية الا انهم يكتبونها بالطول هكذا ⵎ على شكل الفم عند التلفظ بها ونحن نكتبها بالعرض . وأصل كتابة حرف نون في اللغة الفينيقية واللغة اليونانية القديمة ، على شكل اشبه بالحرف نفسه في اللغات الافرنجية اذا كان مكتوباً لامطبوعاً . ومن الاتفاق الغريب ان الاصطلاح الأخير في كتابتها ردها الى اصلها اذ يكتبونها اليوم هكذا n .

وهناك حروف نقلناها عن اللغة الفينيقية بعد ان جعلنا اعلاها اسفلها مثل الكاف فهي في اللغة الفينيقية هكذا ﻻ فقلبناها وكتبناها هكذا ك واما الافرنج فقد غيروا هذا الحرف من جهتين اولاً جعلوا اعلاه اسفله ثم جعلوا يمينه يساره تجاه هكذا k .

ومن الحروف ماغيرنا جهة كتابته من اليسار الى اليمين مثل اللام فهي في اللغة الفينيقية واليونانية القديمة هكذا L على صورتها في اللغات

الأفرنجية اليوم فغيرنا جهتها وكتبناها هكذا ل ...

ومن الحروف ماغيرناه من الوضع العمودي الى الوضع الافقي مثل الياء فانها تكاد تشبه الياء في اللغة اليونانية القديمة الا انهم كانوا يكتبونها هكذا « ᘏ » فقلبناها وكتبناها هكذا « ى » واما الافرنج فجعلوها عمودية هكذا « ᘐ »

واما حرف العين فقد كان في اصله دائرة تشبه حاسة البصر ولا نزال نكتبه كذلك الا انه اذا وقع طرفاً زدنا له نصف دائرة مستطيلة على شكل نصف دائرة الوجه لتكون قرينة على اننا نقصد به العين التي هي حاسة البصر ، وهو من الحروف التصويرية الواضحة في لغتنا ..

وقد كان هذا التغيير من اعلى لاسفل او من اليسار الى اليمين او من العمودية الى الافقية ، تسهيلًا للكتابة لاننا نبتدئ من الجهة اليمنى.

***

كانت حروفنا في اصل وضعها منفصلة فجعلناها مع الايام متصلة الا الالف والواو والدال والذال والراء والزاي فانها لاتزال الى اليوم تكتب منفصله عما بعدها .. وكانت مهملة أي بدون تنقيط فاعجمناها أي نقطناها والهمزة في اعجم للسلب أي ازلنا عجمتها وابهامها . فإذا كان التنقيط حادثاً في العربية فالحروف التي وضعت في الاصل لم تكن تسعةً وعشرين اوثمانية وعشرين ولكنها كانت تسعة عشر اوثمانية عشر شكلًا على عدد اشكالها بدون تنقيط.. فكيف تكفي هذه الاشكال القليلة لكتابة اللغة ؟

استخدموا الشكل الواحد لعدة اغراض .

استخدموا الالف همزةً وحركةً طويلة وحركةً ممدودة.

واستخدموا الواو والياء حركتين طويلتين وحركتين ممدودتين وحرفين.

واستخدموا الالف والواو والياء حركات قصيرة أي بدلاً من الضمة والفتحه والكسرة، ولعل الواوفي اولئك وفي عمرو من آثار ذلك العهد. ومن العجيب انهم عادوا فاستعملوا الحركات القصيرة بدلاً من الطويلة في مثل اسحق وابرهيم والرحمن وسليمن والسموات والملئكة ورؤس وانبؤني واياي فارهبون اي فارهبوني وغير ذلك.

واستخدموا شكل الباء للباء والتاء والثاء ولليا، اذا وقعت اولاً اووسطاً.

وشكل الجيم للجيم والحاء والخاء.

وشكل السين للسين والشين.

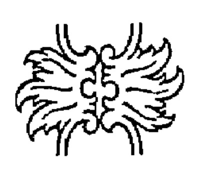
وشكل الصاد للصاد والضاد.

وشكل الطاء للطاء والظاء.

وشكل العين للعين والغين.

وشكل الفاء للفاء والقاف.

ومع ما في ذلك من الصعوبة فانهم كانوا يقرأون ويكتبون، فما اشبه كتابتهم في اول عهدها بكتابة هذا العصر التي يسمونها بالخط المختزل والتاريخ يعيد نفسه.



النحـــــــــــو

نقل الشيخ بدر الدين الزركشي في قواعده عن بعض المشايخ أنه كان يقول العلوم ثلاثة : « علم نضج وما احترق وهو علم الاصول والنحو ، وعلم لانضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث » .. فعلم النحو هو من العلوم التي نضجت وما احترقت فاذا استقريت كلام العرب فلا تجد أداة او حرفاً او حالة من حالات الكلمة في الجملة الا استنبط لها النحاة حكماً ترجع اليه . فاذا كان الاسم مرفوعاً او منصوباً او مخفوضاً مثلاً فلا يخرج عن حكم المرفوعات او المنصوبات او المخفوضات التي نصوا عليها .

وما هو النحو ؟ هو فنّ الاعراب والبناء قال القدماء « النحو في الاصطلاح هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة الى معرفة احكام اجزائه التي ائتلف منها » .

وقال المتأخرون « هو علم يبحث فيه عن احوال اواخر الكلم اعراباً وبناء »

وما هي فائدته؟ قال النحاة ان فائدته التحرز من الخطأ وقال ابن الوردي :

جمّل المنطق بالنحو فمن   يحرم الاعراب بالنطق اختبل

اي ان فائدته ليست في نفسه بل في تجميل المنطق والتحرز من الخطأ

نشرت هذه المقالة في جريدة السياسة الغراء في العدد ٦٠٥ بتاريخ ١٠ اكتوبر (ت ١) سنة ١٩٢٤.

وبعبارة أخرى في اقامة الملكة العربية . ولكنهم تدرجوا فيه من العناية به الى الاخصاء فيه الى اعتباره غاية يطلب لنفسه . فخصصوا له مدارس لا يعلم فيها غيره . منها المدرسة النحوية في جوار المسجد الاقصى في القدس ، بل كان هو الغاية من كل دروس اللغة والأدب . وما من كتاب او شعر او قول او مثل او حديث شرحوه الا عنوا باعرابه وتطبيقه على قوانين النحو ، بل ما من كتاب في اللغة او الشعر او الأدب او الاخبار او التفسير او غير ذلك حتى مما لا علاقة له باللغة الا وفيه نحو ، بل قد تجد من دقائق النحو في غير كتب النحو ما لا تجده في امهات كتبه . وما من علم شاعت اصطلاحاته وامثاله ولغته على السنة الناس حتى الاميين منهم مثل علم النحو . من ذلك انهم اذا ارادوا ان يقولوا ليس الى هذا الشيء حاجة قالوا « لا محل له من الاعراب » واذا ارادوا ان يقولوا فات الشيء قالوا « اصبح في خبر كان » واذا ارادوا ان يقولوا وغير ذلك قالوا « وهلم جرا » او « وقس عليه ما ورد »

وقوانين النحو كانت في اصلها قليلة على قدر مادعت اليه الحاجة لأول عهد الملكة بالفساد ، ثم توسعوا في الاستنباط الى ما تقتضيه الصناعة لا الحاجة ، ثم خرجوا بها الى مماحكات لا طائل تحتها ، مما أوشك به علم النحو بعد نضجه ان يحترق .

إذن كان النحو آلة فأصبح غاية ، وكانت قوانينه على قدر ما تقتضيه الحاجة فتوسعوا فيها الى ما لا تقتضيه . وقد كان الغرض منه على اعتباره آلة ، وعلى الوقوف به عند حد الحاجة ، اقامة الملكة كما تقدم . وكان ذلك لأن اللغة بملكتها تبقى ببقائها وتفسد بفسادها وتذهب بذهابها . ولا يغني اللغة اذا ذهبت ملكتها ان يكون لها ألفاظ ومعاجم الفاظ ، فان الألفاظ

تقل وتكثر وتتطور ، يندثر منها مايندثر ، ويتولد فيها ماتقتضيه الحاجة ويتحول عن معناه منها مايتحول . فاذا بقيت الملكة فاللغة باقية قلت الفاظها أم كثرت وتحولت عن معانيها ام لم تتحول . ألا ترى ان ملكة الطفل في اللغة العامية مثل ملكة الرجل فيها على اختلاف في مقدار الفاظهما . . ولما كان العرب حريصين على ملكتهم ، وحقهم أن يكونوا حريصين عليها . استنبطوا قوانينها ومقاييسها ووضعوا حدودها الى ما لم يجارهم فيه احد . حتى اذا تحيفتها الركاكة وطغت عليها العجمة توصلوا بتلك القوانين الى اصلاح ما فسد منها وارجاعها الى اصلها .

ولكن ما هو اثر هذه القوانين في تلك الملكة ؟ هذا ما نحب أن نستدعي الانتباه اليه .

قال ابن خلدون « ان العلم بقواعد الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل . ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودته . او شكوى ظلامة ، أو قصد من قصوده ، اخطأ فيها عن الصواب واكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان العربي . وكذا نجد من يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين في المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية ، فمن هذا تعلم ان تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة . وقد تجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي »

هذا ماقاله ابن خلدون ، فالانواع ثلاثة : من يحسن الملكة ولا

يحسن الصناعة ، ومن يحسن الصناعة ولا يحسن الملكة ، ومن يحسن الملكة والصناعة معاً . وفي الحقيقة ان النوع الثالث على كونه قليلا واتفاقياً هو من النوع الاول في احسان الملكة ومن النوع الثاني في احسان الصناعة ، لأنه نوع قائم بنفسه ولا اثر لاحسانه الواحدة في احسانه الاخرى . والا فلماذا لا يحسن الملكة من يحسن الصناعة ولا يحسن الصناعة من يحسن الملكة . . وقد بين ابن خلدون سبب احسان القليلين الملكة والصناعة معاً بقوله .

اكثر ما يقع ذلك للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من امثال العرب وشواهد اشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعلم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في اماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعلمها فكان أبلغ في الافادة »

أي انه تعلم الملكة على حدة من مخالطته لما جاء في الكتاب من كلام العرب ، وتعلم الصناعة على حدة مما جاء في الكتاب من قوانين الاعراب . فلو خلا الكتاب من قوانين الاعراب لما اثر ذلك على الملكة شيئاً . فالملكة اذن مستغنية عن الصناعة ولا أثر للصناعة فيها .

***

ان العناية بقوانين اللغة مذهب قديم جداً أخذه المتأخرون عن المتقدمين على سبيل التقليد أو العدوى . فالعرب حين خالطوا السريان في

العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم فنسجوا على منواله، يؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع علم النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان . واقسام الكلام في العربية مثلها في السريانية كما قال زيدان . والافرنج نسجوا على منوال اللغتين اللاتينية واليونانية ، واقتبسوا اصطلاحاتها، فهي لا تزال غريبة عن لغاتهم الى اليوم، ولا يفهمها تلميذهم الا اذا ترجمت الى لغته . بل لا يزال في احكام اللغات الافرنجية الحديثة ما لا ينطبق عليها مثل حالات الاسم بين أن يكون مسنداً اليه Nominative أو مضافاً اليه possessive او مجروراً Dative او مفعولاً به Objective أو منادى Vocative ولا علامات اعرابية لتلك الحالات عندهم الا في الاضافة، ولا يتغير في بعض هذه الحالات الا الضمير . ومن العجب أنهم يسمون الحالة الاولى في الانكليزية رفعاً Upright وما سواها خفضاً Falling حسب اصطلاح العرب . بل ان مصيبة الافرنج اعظم فان الاديب عندهم لا يعول على ادبه الا اذا درس مع لغته اللغتين اللاتينية واليونانية . يتعلم ثلاث لغات ليكون اديباً في واحدة

***

قلنا ان العرب نسجوا على منوال السريان وقد مرّ عليهم بعد وضع علم النحو دوران : في الدور الأول جمعوا بين القوانين والشواهد من كلام العرب . وعلى هذا الاسلوب جرى سيبويه في كتابه كما رأيت . وكان هذا اسلوب اهل الاندلس قال ابن خلدون : « واهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها اقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وامثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب

في مجالس تعليمهم • فيسبق الى المبتدئ كثير من الملكة اثناء التعلم فتنقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها » وقد كان هذا اسلوب أهل الشرق ايضاً لعهد الدولة الأموية والعباسية كما قال ابن خلدون في موضع آخر •

فالذين كانوا يتفقهون في كلام العرب في هذا الدور احسنوا الملكة، والذين انصرفوا الى القوانين احسنوا الصناعة ، والذين عنوا بالأمرين احسنوا الملكة والصناعة معاً •

وفي الدور الثاني اقتصروا على القوانين وجردوا كتبهم من اشعار العرب و كلامهم • وهو اسلوب اهل المغرب وافريقية وغيرهم • قال ابن خلدون « اما من سواهم — اى سوى اهل الاندلس — من اهل المغرب وافريقية وغيرهم فاجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً • وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب — الا ان اعربوا شاهداً او رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه — فاصبحت صناعة العربية كانها من جملة قوانين المنطق العقلية او الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته . وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه، وتمييز أساليبه ، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو احسن ما تفيده الملكة في اللسان .وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ماقصد بها واصاروها علما بحتاً وبعدوا عن ثمرتها »

وعن اهل المغرب وافريقية اخذنا هذا الاسلوب الذي نتبعه اليوم فتعلقنا بالصناعة واهملنا الملكة .

***

ما كان اغنى المتأخرين من عرب وافرنج عن تقاليد المتقدمين من سريان وكلدان ولاتين ويونان في التعلق بهذه القوانين على غير حاجه وما كان احراهم اذا ارادوا اقامة ملكاتهم ان يفتشوا عن اسلوب آخر . بل ما كان احرانا في هذا العصر اذا لم يكن بد من النسج على منوال المتقدمين ان نأخذ الاسلوب الاندلسي على الاقل لا الاسلوب المغربي . ثم بدلا من ان نجرده من اشعار العرب وامثالهم وشواهد كلامهم ، ونقتصر فيه على قوانين الاعراب كما فعل اهل المغرب . فنحصل على علم اللسان صناعةً ، نجري فيه على عكس ذلك اي نجرده من القوانين ونقتصر على الشواهد فنحصل على علم اللسان ملكة .. وهذا هو الاسلوب الذى اشار به ابن خلدون فيلسوف العرب واستاذهم الاكبر في مواطن كثيرة في مقدمته . واليك ماقاله في بعض تلك المواطن

« ان اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكناً شان سائر الملكات ووجه التعلم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها ان يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضاً في سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له الملكة بهذا الحفظ والاستعمال . ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة . ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب واساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال . والذوق يشهد بذلك

وهو ينشأ مابين هذه الملكة والطبع السليم فيهما ، وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً ، ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر . وهو الناقد البصير بالبلاغة فيهما . وهكذا ينبغي ان يكون تعلمها »

وقال في موضع آخر :

« تعلم مما قررناه في هذا الباب ان حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب ، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ بينهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم »

هذا رأي ابن خلدون وبذلك تكون الاساليب ثلاثة : الاسلوب الاندلسي والاسلوب المغربي ، والاسلوب الخلدوني ، وغرضنا في هذا المقال الدعوة الى الاسلوب الخلدوني .

***

اذا كان غرضنا اقامة الملكة بعد ان فسدت ، بل احياءها بعد ان فقدت فاحسن الطرق واقربها ان نخاطب المبتدئين باللغة الصحيحة رأساً ، ان نحرص على ان نجعلهم لايقرأون من الكتب ولا يحفظون من كلام السلف والمولدين الا ما كانت ملكته صحيحة لاتتنازعها ركاكة اوعجمة ، ان نمرنهم كثيراً على الكتابة ، ان نقوم ما ائآد من عباراتهم في القراءة والكتابة والكلام قياساً على كلام العرب لاعلى قوانين اللغة . فنقول : قال الرجلُ بالضم قياساً على قال النبيُّ . وقال الأحنفُ ، وقال المهلبُ ،

ونقول النهار جميل برفع الاثنين قياساً على قولهم العلم زين ، والصدق عز والكذب خضوع ، والخير عادة والشر لجاجة . واذا اخطأ احدهم ارشدناه او قلنا لرفاقه «ارشدوا اخاكم فقد ضل» .. وعلى الجملة ان نعلمهم اللغة كما يتعلم الطفل لغة أمه فهو يسمعها ، ثم يألفها ، ثم يفهمها ، ثم يتكلمها بدون ان تعلمه أمه قوانين اللغة ، وبدون أن تفسر له الفاظها او تترجمها . قد يخل بالاسلوب في اول امره ، كما قد يسيء التلفظ ببعض حروفه . ولكنه لايلبث ان يهتدي الى الصواب بحكم التقليد وبضرورة ان يكون مفهوماً . بل كما يتعلم الطفل ابتسامات أمه وحركاتها واشاراتها وكما يتعلم ان يلبس وان يمشي وأن يغني الى غير ذلك مما يأخذه بالتقليد والتمرن . وهي نفس الطريقة التي بها يتعلم كل اجنبي لغة أمه ، فهو يحسن ملكتها قبل ان يعرف شيئاً من احكامها ، وفي اللغات الأجنبية ماهو اصعب من اللغة العربية كثيراً مثل اللغة الروسية والالمانية فان فيهما من التصاريف وتعدد الحالات على الاسم ، والشذوذ مالايذكر بجانبه مافي اللغة العربية منهُ . واذا تعلم الاجنبي قوانين لغته فليس عن حاجة اليها ، ولا لاحسان ملكته . ولكنه انما يتعلمها تبعاً للعادة ، او لما قد يكون في درس هذه القوانين من ترويض للعقل . ولذلك سمي النحو في اللغات الافرنجية منطق اللغة او اقليدس اللغة . وقد رأيت أن ابن خلدون قال في كلامه عن الاسلوب المغربي الذي مرّ ذكره « ان صناعة العربية أصبحت من جملة قوانين المنطق العقليه او الجدل » ولكن رياضة العقل في ما لاتدعو اليه حاجة اسراف في غير محله . وكم نجد في اللغات الاجنبية من كبار الكتاب والشعراء والخطباء من لم يتعلموا شيئاً من قوانين لغاتهم . وهي نفس الطريقة التي كان العرب يأخذون بها لغتهم قبل وضع علم النحو . فكم نبغ

في الامةالعربية في ذلك العهد من الشعراء والخطباء ، وبينهم من لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة مثل المتلمس والفرزدق وذي الرُّمة وغيرهم وهم هم الذين من اقوالهم استخرج النحاة احكام النحو وبأقوالهم لا يزالون يحتجون . وعلى هذه الطريقة جرى كثيرون بعد وضع علم النحو من قديم الزمان الى اليوم وبينهم من لم يكونوا في اول نشأتهم من اهل العلم والأدب بل كانوا يتعاطون اعمالاً يدوية مثل سري الرفاء الذي نبغ في الشعر على عهد سيف الدولة وهو يرفو ويطرز في دكانه . ومن الذين جروا على هذه الطريقة في عصرنا هذا الذي كدنا نصبح فيه غرباء عن اللغة العربية ، محمود سامي البارودي الذي قيل فيه انهُ متنبي عصره ، فقد كان من اولئك الذين تعلموا على الاسلوب الخلدوني ، أي تعلم اللغة من اللغة نفسها . فكان اذا وقع الاسم في كلامه بعد أن أو احدى اخواتها نصبهُ قياساً على نظائره من اقوال غيره من الشعراء المتقدمين لا على احكام ان واخواتها . ومثله كثيرون . بل لعل اكثر الذين يحسنون الملكه من كتابنا وادبائنا لا يحسنون الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور . وقد لوحظ ان الذين يشتغلون بتمثيل الروايات الموضوعة باللغة العربية الصحيحة قد اصبح الاعراب فيهم ملكة مع أن اكثرهم اميون . فكيف اكتسب كل هؤلاء ملكة اللغة ? اكتسبوها بالتقليد والبداهة والحفظ والاستعمال . واذا عرف الذين نبغوا بعد وضع علم النحو قوانين اللغة وراعوها في الاستعمال فلانهم استخرجوها من اللغة بالاستقراء فهم تعلموا الصناعه من الملكة لا الملكة من الصناعة . وهذه الاحكام التي استخرجوها بالاستقراء لم يكن لها اقل علاقة باجادتهم في الفنين من المنظوم والمنثور . بل أن الذين درسوا النحو في مطولاته اذا قرأوا أو كتبوا أو تكلموا راعوا في

ذلك وحي السليقة لا احكام النحو على حد قول الشاعر ٠

ولست بنحوي يلوك لسانه
ولكن سليقي أقول فاعرب

***

إذا رأينا ابناءنا يعجزون عن اكتساب ملكة اللغة قراءة وكتابة وتكلما ، فليس ذلك ناشئاً عن جهلهم قوانين اللغة ، ولا عن صعوبة اللغة العربية ، ولا عن عجز الأساتذة عن تدريسها ، وانما السر في ذلك ان اللغة في اكثر مدارسنا ليست اللغة الحية ٠٠ فسدت الملكة العربية يوم خالطنا الاعاجم فما قولك الان وقد حلت اللغات الاجنبية محل لغتنا في بيوتنا ومدارسنا وتعاملنا! يدخل ابناؤنا الى المدارس الاجنبية فلايلبثون ان يعرفوا اللغات الاجنبية اكثر مما يعرفون لغتهم فيحسب الوالدون ورؤساء المدارس ان ذلك ناشيء عن صعوبة اللغة العربية وسهولة اللغات الاخرى ٠ ولوتدبرنا الامر لرأينا ان ابناءنا انما يتقنون اللغات الاجنبية على صعوبة اكثرها بالقياس الى لغتنا ، وعلى جهل اكثر اساتذتها بأساليب تدريسها ، لانهم يسمعونها ويستعملونها دائما ٠ فهم يدرسونها في الحساب والجغرافيا والتاريخ والموسيقى والرسم واللعب وسائر الفروع ٠ فضلا عن دروس اللغة من قراءة واستظهار وانشاء ومحادثة واملاء وخط ويتكلمون بها في غرف التدريس وفي ساحات اللعب ، وفي دخولهم وخروجهم فلاعجب اذا انطبعت على السنتهم واستسهلوا فيها كل صعب ٠ والامر بالعكس في لغتهم فهم لايستعملونها الاقراءة ٠ واذاتكلموا في

المدرسة او خارجها ، فبلغة أخرى . اما بلغة اجنبية واما باللغة المحكية العامية . فما اشبه لغتنا والحالة هذه باللغتين اللاتينية واليونانية القديمة اللتين تدرسان لا لتستعملا في التخاطب والتعامل مثل سائر اللغات الحية ، ولكن لفهم ادبياتهما القديمة ، بل ما اشبهها باللغات الميتة التي يدرسها البعض لاغراض فيلولوجية اوتاريخية

***

لاتحيا لغتنا الا اذا كانت لغة التعليم ، الا اذا استعملناها تكلماً وقراءة وكتابةً ، ولا بأس هنا من التفصيل ولو باختصار تتمة للفائدة .

أما التكلم فيجب على الاستاذ ان لايخاطب تلاميذه الا باللغة الصحيحة وأن لايستعمل اللغة المحكية في حال ، والا انطبعت هذه اللغة المحكية العامية التي يخاطبهم بها على ألسنتهم أكثر من اللغة الصحيحة التي يحاول ان يعلمهم اياها . واذا كانت احسن الطرق لاكتساب ملكة اللغة هي مشافهة أهلها ومعايشتهم ، واذا لم يكن هذا العصر عصر فصاحة ، فلا بد أن يمثل الاستاذ بنفسه الامة العربية في عهد فصاحتها . ولذلك يجب ان يكون الاستاذ مهذب اللفظ جميل الذوق بصيراً بجال الملكة ، لأن التلميذ يتعلم من لغة استاذه اكثر مما يتعلم من شواهد كلام العرب . وليس شيء اضر باللغة وادعى لفساد الملكة من الاستاذ العيي الذي يعلم قوانين اللغة وأُصول الفصاحة والبلاغة وهو عامي اللفظ يرمي الكلام على عواهنه . ما اشبه أُستاذ اللغة العربية الذي يعلم اللغة الصحيحة ولايتكلم الا بالعامية بمن يعلم اللغة الانكليزية وهو يخاطب تلاميذه بالافرنسية أو غيرها ، وما احراه ان يفشل . اذا اردت ان تكلف تلميذك القيام

او القعود او القراءة او الكتابة فقل له قم ، اقعد ، افتح الكتاب . اقرأ السطر الأول . اكتب . امح اللوح. امسك القلم ، فيتعلم الأمر من قام وقعد وقرأ و كتب ومحا وأمسك ، ويتعلم ان ينصب المفعول به في افتح الكتاب واقرإ السطر وامح اللوح وامسك القلم ، من فوره وبدون عناء ويقيس امثالها عليها . ولا يفيده شيئاً ان يعرف قاعدة بناء الامر من الصحيح والمضاعف والمثال والأجوف والناقص واللفيف المفروق واللفيف المقرون والمهموز من الثلاثي والرباعي والخماسي والسداسي ، ولا يفيده شيئاً ان يعرف احكام المفعول به بحذافيرها ، وانما يفيده ان يسمع غيره يستعمل اللغة على الوجه الصحيح فيقلده . وكذلك يجب على الاستاذ ان يكلف تلاميذه ألا يتكلموا الا باللغة الصحيحة وهم اذا سمعوها فالفوها ففهموها هان عليهم التكلم بها .

واما القراءة فهي من أهم مصادر اللغة . اين توجد اللغة؟ اللغة لا توجد في كتب النحو ولا في معاجم اللغة ، وانما توجد في ادبياتها في اشعارها ، في امثالها ، في كتب تاريخ الامة واخبارها ، في كتب علومها كالحساب والجغرافيا وسائر الفروع . وما اجدر الاستاذ ان تتناول دروسه في القراءة كل هذه الموضوعات لا أن يقتصر على موضوع واحد. وليعلم ان المقصود من دروس القراءة ليس التمرين عليها فان هذا يكفيه الكتاب الاول في الفصول الابتدائية ، وانما الغرض من دروس القراءة التعرف باللغة والتفقه في تراكيبها واساليبها ومخالطة عباراتها. ولكل ذلك اصول دقيقة ليس هذا محل التبسط فيها . ليرغب الاستاذ تلاميذه في المطالعة ولذلك يجب ان يكون في كل مدرسة مكتبة صغيرة للتلاميذ تجمع فيها الكتب

النقية العبارة الصحيحة الاسلوب المنزهة عن العجمة والركاكة والتعقيد .
وليحذر ان يجعل في ايديهم تلك الكتب التي توخى فيها اصحابها العناية
بالصناعة اللفظية فخرجوا باللغة عن حالتها الطبيعية. فقد آن للامة العربية
ان تخلص من هذا المرض . واحتفاظاً برغبة التلاميذ في المطالعة يجب عليه
ان ينوع الكتب ويجددها من وقت الى آخر .

واما الكتابة فبعد ان يمرن تلاميذه عليها في الفصول الابتدائية
يجدر به ان ينشئ لهم جمعية يقدمون فيها الخطب والمناظرات ، ويلقون
فيها اجمل مايستظهرون من القصائد على مثال الأسواق الأدبية التي كان
العرب يجتمعون فيها للمفاخرة والمناشدة والمناضلة ، كسوق عكاظ
في الجاهلية وسوق المربد في الاسلام . ثم لينشئ لهم جريدة يتولون
كتابتها بأنفسهم ، ولكن ليحذر من أن يكثروا ابوابها ، ومن ان يتقاضاهم
ان يطيلوا في مقالاتهم ، ومن أن يكتبوا في موضوعات لايعرفون عنها
شيئاً فان ذلك يرهقهم ويسئمهم وينفرهم من الكتابة .

***

ومما لابد من استدعاء الانتباه اليه ان كل دروس اللغة من قراءة
ومحادثة وانشاء واملاء يجب ان تمزج معاً ، لا أن يؤخذ كل منها على حدة.
فكل درس يجب ان يقرأه التلميذ وان يفهمه وان يتكلمه وان يمليه
وان يتمرن على الانشاء فيه . فاذا كان درس القراءة القصة التالية :

كان صبيٌّ مرّةً يصيد الجراد فوجد عقرباً فظنها جرادة . فمد يده ليأخذها

ثم تباعد عنها .فقالت له لو انك قبضتني بيدك لتخليت عن صيد الجراد .

فبعد أن يقرأها التلاميذ ويفهموها . ليكن السؤال والجواب على الوجه الآتي :

ماذا كان الصبي مرة يصيد ؟ كان الصبي مرة يصيد الجراد

ماذا وجد الصبي ؟ وجد الصبي عقربا

ماذا ظن الصبي العقرب ؟ ظن الصبي العقرب جرادة .

لماذا مد الصبي يده ؟ مد الصبي يده ليأخذها

لماذا تباعد الصبي عن العقرب؟ تباعد الصبي عن العقرب لأنه عرف انها عقرب

ماذا قالت له ؟ قالت له العقرب لو انك قبضتني بيدك لتخليت عن صيد الجراد .

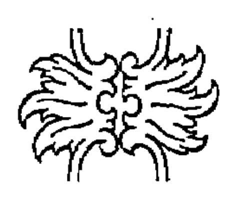
وبعد هذه المحادثة يكلفهم أن يحكوا القصة باللغة الصحيحة ومن اخطأ أرشده وطلب منه أن يعيد العبارة . ثم يكلفهم أن يكتبوها كما حكوها ففي ذلك تمرين على الانشاء والاملاء معاً . ثم ليكلفهم ان يحولوها للمؤنث بان يقولوا كانت بنت مرة تصيد الجراد الخ ثم للمتكلم بان يقولوا كنت مرة اصيد الجراد الخ ثم ليكلفهم ان يكتب كل منهم خمس جمل على مثال « وجد الصبي عقربا » مثل وجد التلميذ قلما ، وجد سليم ريشة . وخمس جمل على مثال « لو انك قبضتني لتخليت عن صيد الجراد » مثل لو انك اسرعت لادركت القطار ، لو انك انتبهت لفهمت كلام الاستاذ ، وما استعصى عليهم تحصيله فليكثر من تمرينهم عليه وليكثر من التكرار .

ويجب ان يكون في كل درس جديد بعض ما في الدرس الذي سبقه من الفاظ وتراكيب لتكون الدروس سلسلة يؤدي بعضها الى بعض . ولما كان العدد في اللغة العربية كثير التفاصيل وقد قال فيه احد أدباء العصر

في النحو لا يقهرني الا تفاصيل العدد

فالاولى ان تعلم هذه التفاصيل ويمرن التلاميذ عليها وعلى مميز «كم» الاستفهامية في دروس الحساب ، كما قد يعلم غيرها ويمرن عليه في غيره . واحياء اللغة قراءة وتكلماً وكتابة يحتمل كلاما طويلا ولكن بهذا القدر كفاية .

هذا هو الاسلوب الذي ندعو اليه وللاساتذة الكرام في ايثاره الرأي الموفق ان شاء الله .



قصيدة حافظ ابرهيم في الدستور

والدكتور طه حسين

انتقد الدكتور طه حسين قصيدة حافظ في الدستور بعد ان صدر انتقاده بمقدمة تشف عن ادب رائع واسلوب رشيق جميل يفتن القارئ ويغري الكتاب ان يتحدّوه . ولست الآن في مقام درس اسلوبه . وانما غرضي من هذه العجالة ان أعلق كلمة على انتقاده لقصيدة حافظ :

اعرف للأستاذ طه حسين مكانته ، واعده مع طائفة من كتاب مصر واساتذتها اصحاب الكفايات ، من اركان هذه النهضة الجديدة في مصر بل في العالم العربي كله . وقد كنا نتطلع دائماً الى مايكتبه الاستاذ ورفاقه وكم يتمنى كثيرون لو يستطيعون ان يؤموا مصر ليتلقوا مايلقيه الاستاذ ورفاقه من الدروس العالية في الجامعة المصرية الزاهرة . بل كم كنا نتمنى لو ينشط الاستاذ ورفاقه الى انشاء مجلة او جريدة يعرضون فيها ماتعمقوا فيه واحاطوا به من علم وفلسفة وأدب وسياسة ، فكانت جريدة السياسة الغراء مانتمنى . . .

الجامعة المصرية وجريدة السياسة من اهم ماتحتاجه البلاد في دورها الجديد وللاستاذ طه حسين فيهما المنزلة العالية .

وبعد فليسمح لنا الاستاذ ان نبدأ بكلمتنا عن انتقاده .

نشرت في جريدة السياسة الغراء في العدد ٧٠ بتاريخ ١٨ يناير سنة ١٩٢٣

يظهر لنا من اسلوب الاستاذ في انتقاده او تقريظه انه يكتفي بالاشارة الى مواضع الاساءة او الاحسان بدون ان يوطئ لقوله ببيان الاصول التي يرجع اليها ، مما قد يوهم انه متحكم وليس هناك تحكم ، او انه متحامل وليس هناك تحامل . . ولست احمل ذلك منه الا على احد امرين : اما على اعتقاد منه ان القارئ يعرف تلك الاصول فلا حاجة الى بسطها ، واما على ان المقام او الوقت لا يتسعان للتبسط فيها . . على انه اذا كان بين القراء من يعرف بعض تلك الاصول فان اكثرهم يجهلها او ليس بينهم من يعرفها كلها . واذا كان المقام او الوقت لا يتسعان لبسط تلك الاصول ، فما أحرى الاستاذ ان يحيلنا على مراجعها ، او ان يعدنا بالتبسط فيها وهمته عالية .

***

كان علامتنا المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء يضطر في ماينتقده على الأولين والآخرين الى بيان الأصل الذي يرجع اليه اذا كان معروفاً ، او الى بسطه اذا كان من استنباطه واجتهاده ، فكان انتقاده دروساً ثمينةً في اللغة والأدب . من ذلك ابحاثه الطريفة الطويلة في «الشعر» «والمجاز» و« اللغة والعصر » ولا يخفى ما في ذلك من تعزيز انتقاده ، وانصاف الذين ينتقدهم ، وافادة قرائه . وللاستاذ في ايثار هذه الطريقة رأيه العالي .

***

يقول الاستاذ ان حافظاً قد شعر كثيراً فأجاد الشعر واحسنه . ولكنه

لم يذكر شيئاً من ذلك الشعر الذي اجاده واحسنه ، ووجه الاجادة والاحسان فيه .

يقول انه بحث عن الشعر في هذه القصيدة فلم يجد شيئاً . فما هو الشعر؟

يقول ان الشاعر قد يرتفع وقد يهوي . فما هي الاحوال التي قد يرتفع الشاعر وتلك التي قد يهوي فيها ؟ او بالأحرى ماهي الأحوال التي علت بحافظ وتلك التي هوت به ؟

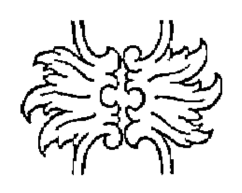
يقول ان هذا العصر ليس عصراً شعرياً . فهل السبب في ذلك الحياة السريعة العملية التي صرنا اليها . ام ان هناك اسباباً أخرى تضاف الى هذا السبب ؟ ثم ماهو ذلك الشيء في حياتنا الاجتماعية الذي يضطر الشعراء الى السكوت ، وماذا يكرههم على ان يتكلموا ؟

ثم اخذ بعض الأبيات من تلك القصيدة وا كتفى بسؤال القارىء «هل ترى فيها شيئاً من جمال الشعر وروعة الفن»؟ كيف يكون الشعر جميلاً و كيف يكون الفن رائعاً ؟ اجل الاستاذ عن ان يحيلنا في ادراك ذلك الجمال وتلك الروعة على الذوق ، فاننا نعتقد ان هناك اصولاً للجمال وشروطاً لروعة الفن .. ثم ماذا يعني بالابتذال ومتى يكون الكلام رصيناً متيناً في غير وحشية ولا ابتذال ؟ وهل في قولنا طلعت الشمس وغاب القمر وجاء الرجل وضحك الغلام ابتذال ؟

ثم اخذ قول حافظ

ايأذن لي المليك البراني اهنيء مصر بالأمر الكريم

فقال « اترى فيه لفظاً من الفاظ الشعر او معنى من معـاني الشعر » مما يستفاد منه ان الشعر قد يكون شعراً بلفظه، وقد يكون شعراً بمعناه وقد يكون شعراً بهما معاً، فما هي الفاظ الشعر ؟ وما هو جنس المعاني الذي يكون به الشعر شعراً ؟ الى غير ذلك مما لانشك ان الاستاذ من اقدر الناس على التبسط فيه، ولعل وقته يتسع له ان شاء الله



اللغة العربية في نهضتها الاخيرة

لم تستيقظ الامة العربية منذ جيل او اقل من سباتها الطويل ، الا وقد انقطع عهد الالسنة باللغة الفصحى ، ولم يبق من صلة بين الامة والسلف الصالح الا الفاظ قليلة تبدلت مقاطعها وتغيرت هيئاتها ، والا تعبيرات مشوشة مختله .

ولو ان داعياً دعا في ذلك العهد الى استبدال اللغة العامية من الفصحى ، واعتمادها في الكتابه لم يجد من ينكر عليه ذلك . لان الامة باسرها كانت غريبة عن اللغة الفصحى وآدابها ، فكيف تتعصب لها وتذود عنها وهي لاتعرفها ، وفوق ذلك لم يكن التعليم في يدها بل كان في يد غيرها ..

ولكن من حسن حظ هذه اللغة ان جعل التعليم بها ، وكان اول ما فعله اولئك الرؤساء الغرباء الكرام ان جمعوا ماوصلت اليه ايديهم من الكتب العربيـة ، وكانت مبعثرةً هنا وهنالك لا يعرف احد قيمتها ، واوعزوا الى من استعانوا بهم من الاساتذة ان يتصفحوها ويستقروا الفاظها ، ويستخرجوا مخبآتها بحيث كانت النهضة لاول عهدها لغوية ..

ومن تصفح اول ماوضع من الكتب المدرسية في اللغة والرياضيات والجغرافيا والهيئة والطبيعيات والطب وسائر الفروع ، رأى من صنع اولئك المؤلفين انهم حرصوا كل الحرص على اقتباس الفاظ القدماء العلمية والفنية . ومع تقصيهم في التنقيب والاستقراء لم ينزلوا من اللغة

نشرت في جريدة السياسة في العدد ٨٩ بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٩٢٣

العربيـــة منزلة اهلها . بل كانوا منها مكان الغرباء عنها . عرفوا الشيء الكثير من الفـاظها وتراكيبها واحكامها ولكنهم لم يحسنوا اسـتعماله واستثماره. فكنت ترى كتاباتهم خليطاً من الفصيح والركيك ، والجيد والردي. ،فالفصيح والجيد ممايتسخونه، والركيك والردي. ممايسجخونه ، بل ما كان اشبه اللغة الفصحى عندهم باللغة اللاتينية اواليونانيـــة عند الغربيين اليوم ، يأخذون منهما الفاظهم العلمية والفنية وهم غرباء عنهما وهما ميتتان عندهم..

لم يكن هنـاك علم لغة اوأدب اوشـعر ، اذ لم يكن اللغوي لغويا الا على قدر مايعي في صدره من الفاظ اللغة وغرائبها وشواردها ، فكان اشبه بالحفاظ والرواة منه بالعلماء . . ولم يكن الاديب اديباً الا على قدر ما يغير على الفاظ المتقدمين فيسردها سردا ويكيلها جزافاً، فكان ابرعهم في الادب من اذا كتب في موضوع نسـخ كل كلمـة فيه من كلام متقدمي الادباء والكتاب ، ولو سلخ في تفقد اللفظة والتفتيش عنها في مظانها الاسبوع والاسبوعين . فاذا اراد ان يقول رجع فلان خائباً، قال رجع بخفي حنين . واذا اراد ان يقول ليس لفلان في الامر دخل ، قال لاناقة له فيه ولاجمل . واذا اراد ان يقول ان فلاناً استقصى اطراف علم كذا ، قال ملك عنانهُ وقياده ورسنهُ ، واه فيه القدح المعلى ، واليه تشد الرحال وتضرب اكبـاد الابل . واذا اراد ان يقول ان هذه المسألة لايختلف فيها اثنـان ، قال لاينتطح فيها عنزان . واذا اراد ان يقول ان فلاناً يشبه فلاناً ، قال حذوك التمرة بالتمرة ، والقذة بالقذة ، والغراب بالغراب ، والنعل بالنعل . واذا اراد أن يقول ان فلاناًمنقطع النظير ، قال فلان قريع وحده اذا مدح ،وجحيش وحده اذا ذم . واذا هنأ بزواج

قال بالرفاء والبنين ، واذا رثى قال انقض علي نعي فلان انقضاض الصاعقة وثل بموته عرش المجد ونضب معين الادب . واذا وصف قوماً بالاطراق والتفكير ، قال كأن على رؤوسهم الطير الى غير ذلك .

والكلمة التي لا يعرف لها قائلًا لا يتنازل الى استعمالها ولو وردت في كل معجمات اللغة . بل كان من الادباء ولا يزال منهم الى اليوم ، من اذا اراد ان يستعمل كلمة ، بحث عن عمرها فاذا لم يُرب على الفي سنة او الف على الاقل فلا يستعملها . بل كان منهم ولا يزال كثيرون الى اليوم من اذا جاء بكلمة اتبعها بمرادفاتها على غير اقتضاء ولا مناسبة ، تبجحاً بكثرة محفوظه وسعة معرفته .. وقد وقع في يدي من عهد قصير كتاب لكاتب من امثال هؤلاء الكتاب لم ترد فيه كلمة الا ومرادفاتها معها ، من ذلك قوله . « فلان قصيُّ مدى البصر بعيد مرمى النظر » وقوله « لسنا بغاة نصفة ولا عفاة معدلة » وقوله « لم نر الا رجلًا مغشياً بالغل محنياً على الضغينة » بحيث لو حذفت المترادفات منه لم يبق منه الا الربع او الخمس او اقل .. بل كان منهم ولا يزال كثيرون الى اليوم من اولع بالغريب فاذا رأى ان كلمة « ورق » مثلًا شائعة معروفة استعمل كلمة قرطاس ، فاذا شاعت استعمل كلمة كاغد ، فاذا شاعت استعمل كلمة مهرق ، فاذا شاعت ولم تبق لديه او في اللغة كلمة غريبة بمعناها ، تحاشى الكلام في موضوع له علاقة بالورق ، بل قد يهجر الكتابة بتاتاً اذا كلف ان يكتب بلغة الناس ... وقد بلغ من تهافت كاتب في مصر في الجيل العشرين على الغريب انه قال في كتاب ترجمه عن الافرنسية « خرّيت سبروت هذه الفكرة هو فولتير » اي صاحب هذه الفكرة هو فولتير .

اعوذ بالله واعيذ اللغة العربية من مثل هذا . فانت ترى ان الاديب كان اشبه بالناسخ بل بالماسخ منه بالاديب ..

لم يكن الشاعر شاعراً الا اذا قلد المتقدمين من الشعراء في المديح والهجاء والتشبيب والرثاء وغير ذلك من ابواب الشعر في الفاظهم واساليبهم ، فكان اشبه بالوزان منه بالشاعر ، بل بالصدى منه بالصائت المحكي .

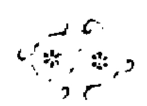
وعلى الجملة لم يكن هناك علماء وادباء وشعراء بل حفاظ ورواة ونساخ ووزانون وكلهم مقلدون .. والتقليد كما رأيت لايكون في اوله الا مشوشاً ثم يصير الى الاجادة والاتقان . وقد رأينا من الكتاب في العهد الاخير ولاتزال منهم طائفة الى اليوم من اذا كتبوا احسنوا التقليد وجروا على مناحي العرب ، كانهم من سلالة صاحب الاغاني او العقد الفريد او الكامل ، او كانهم الجاحظ وابن المقفع والزمخشري وبديع الزمان الهمذاني والحريري بعثوا في هذا العصر ..

ولكن التقليد تقليد سواء أكان مشوشاً ام متقناً ، والمقلد مهما اجاد واتقن فانما هو غريب دخيل . وما زمن التقليد في حالتي التشويش والاتقان الازمن تعلم وتحصيل لازمن ابتكار واستثمار ..

وقد كان من فائدة هذا التقليد ان تجدد عهد الفصاحة . ولعمري انها لفائدة عظيمة يستحق عليها كل من اشتغلوا باللغة الثناء الطيب ولو كانوا مقلدين .. لم تكن للامة لغة فصارت لها لغة ، وانها للغة غنية . ولم تكن لها ادبيات فصارت لها ادبيات ، وانها لادبيات راقية .. وما احياء لغة انقطع عهد الالسنة بها منذ امد بعيد ، وما احياء ادبيات كاد يعفيها الزمان ، بالمطلب السهل الذي يتم في زمن قصير مثل هذا الزمن الذي

مضى منذ اول هذه النهضة الى اليوم ، لولا همة اولئك الابطال زعماء النهضة ، وما رزقوا من الذكاء والجلد ، وهيات ان يجود الزمان بمثلهم .. يكفيهم فضلًا انهم وصلوا ما انقطع من سلسلة نسبتنا الى السلف الصالح وانزلونا منهم منزلة الأبناء من الآباء ، بعد ان كنا ادعياء لاأصل لنا ولا فصل .. ولم يبق لنا بعد ان اجتزنا دوري التقليد ، اي دور التشويش ودور الاتقان ، الا ان ننزل من اللغة منزلة ابنائها منها .

فعالم اللغة اليوم لاتقاس معرفته بما وعى من الفاظ اللغة وشواردها وغرائبها ولكن بما عرف من أصولها وخصائصها . والأديب ليس ذلك الذي اذا كتب استعار الفاظ غيره سواءٌ ارادها أم لم يردها ، ناسبته ام لم تناسبه ، ولكن هو الذي يتصرف بالفاظ اللغة كما كان يتصرف بها ابناؤها ، فكل كلمة يقولها هي له تترجم عما في نفسهِ . والشاعر ليس ذلك المقلد الوزان ، ولكنهُ هو الذي يصدر في مايقوله عن وحي طبعهِ والهام خياله ، يتحكم بلفظه لايتحكم لفظه به .. ويسرنا ان نقول ان في مصر اليوم من انصار هذا المذهب الجديد عدداً ليس بقليل ، ونمسك القلم عند هذا القدر ولعلنا اطلنا .



ـ كتاب الكامل وبعض كتاب هذا العصر ـ

قال ابن خلدون « سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان أصول الأدب واركانه اربعة دواوين : وهي كتاب الكامل للمبرد ، وادب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها »

لست اقصد ان أبين لك ماهو الأدب في عرف ابن خلدون وشيوخه ، وانما اقصد أن أبين لك اسلوب كتاب الكامل ثم مابينه وبين صحفنا وكتبنا من شبه او اختلاف .

ترى في كتاب الكامل صرفاً ونحواً ولغةً وشعراً واخباراً ، وماتراه في كتاب الكامل تراه في غيره من دواوين الأدب التي اشار اليها ابن خلدون مع اختلاف قليل في مايروونه . ولكن كتاب الكامل واشباهه من الكتب القديمة ، ليست من أمهات الكتب في الصرف والنحو واللغة والشعر والأخبار ، وانما هي تعاليق على هذه الأبواب كلها ، قد تستفيد منها ولكنك لاتكتفي بها . وكان الأولى ان يكون كل نوع منها حواشيَ على كتبه الخاصة به ، اي ان تضم الابحاث الصرفية الى كتب الصرف ، والابحاث النحوية الى كتب النحو ، والابحاث اللغوية الى كتب اللغة وان يرد كل شعر الى ديوان قائله ، وان تضم الأخبار الى كتب الأخبار

اذا كانت في هذه الحواشي والتعاليق استدراكات مفيدة خلت منها أمهات كتبها . والا فان هذه الابحاث المقتضبة غير المستوفاة قليلة الفائدة . فانك اذا قرأت كتاب الكامل من اوله الى آخره فلا تخرج منهُ صرفياً ولا نحوياً ولا لغوياً ولا يقضي حاجتك كلها مايرويه من الشعر وما يقصه من الأخبار ، ولا بد لك في استيفاء حاجتك من ذلك كله ان ترجع الى كتبه الخاصة به .

ومن يقرأ صحفنا الراقية وبعض مايظهر بين آن وآخر من الكتب يرَ انها اشبه بكتاب الكامل من حيث الاسلوب فهي ليست الا تعاليق في كل فن وعلم ومطلب ، قد تستفيد منها ولكنك لاتجد حاجتك كلها فيها . تبحث في الأدب والعلم والفلسفة والاقتصاد وغير ذلك ولكنها كلها ابحاث مقتضبة غير مستوفاة ولا مشبعة ، وقل بين كتابنا ، مهما احاط بموضوعه من يستطيع ان يفرغ كل مايمكن ان يعلم عن ذلك الموضوع في مقاله .. وما رأي كتابنا وأدبائنا لو كلفوا ان يجعلوا من مقالاتهم ورسائلهم التي ينشرونها في الصحف او يجمعونها في كتاب برأسه محاضرات وأباحوا للسائلين ان يسألوا ، افلايضيقون ذرعاً بما يتوارد عليهم من السؤالات والاستيضاحات ؟ او لا يضطرون ان يتوسعوا في البحث بما يكون توطئةً له او استدراكاً عليه او تعمقاً فيه ؟ مما لاتحسب معه رسائلهم المنشورة وكتبهم المجموعة الا شيئاً يسيراً لايغني القارئ كثيراً ، بل قد يشوش عليه الامر ويستدرجه الى اعتياد الالمام بكل موضوع والاكتفاء منه بنتف يتناولها بامرار النظر ... وما قولهم لو ارادوا ان يضعوا كتاباً برأسه في كل موضوع من الموضوعات التي يتعرضون لها في الصحف . افلا يرون انفسهم انهم لايكتفون بما كتبوا ؟ او لا يجدون ان ما كتبوه

ليس الا شيئاً يسيراً مما يجب ان يكتب ؟ وان هذه الفصول التي يكتبونها قد لا يجدون لها محلاً مخصوصاً في كتبهم لأنها ليست فصولاً قائمة بنفسها .

وقد رأينا من كتابنا من يعتذر عن اضطراره الى الايجاز او الاجمال او الاقتضاب ، واكتفائه بالالماع وسكوته عن شيء كثير مما كان يجب ان يقال ، بأن الصحف لا تحتمل التعمق والاشباع والاحاطة وارضاء الكاتب والقارىء ، وانه حسبه مما يكتب ان يسرك ويبعث في نفسك الشوق الى طلب المزيد ... ولكن انما يجوز ذلك اذا كان هناك كتب يرجع اليها في اللغة العربية .

نحن معشر القراء في احتياج اما الى كتب في هذه الابحاث ، واما الى عناية من الكتاب في افراغ كل ما يعلمونه في مقالة برأسها ، او في سلسله مقالات تجمع اشتات ذلك الموضوع وتحيط باصوله وفروعه ولا تترك حاجة في نفس الكاتب والقارىء . ولعل الفرق بين كتاب الكامل وما نقرأه في صحفنا وكتبنا اليوم ان لابحاث كتاب الكامل امهات يرجع اليها . فاذا شوقك الى الاستزادة وجدت من الكتب ما يقضي حاجتك . واما ما يكتبه كتابنا وادباؤنا فلا مرجع له في اللغة العربية ، قد تسر بما يكتبون ، وتتشوق الى الاستزادة ، فلا هم يزيدونك ولا كتاب يحيلونك عليه .

لغة الجرائد

مع انتشار صناعة القلم ، واحسان الكثيرين من كتابنا الألباء ملكة اللغة ، واتقانهم علوم اللسان ، لانزال نرى حتى في كلام الراسخين في اللغة والانشاء ، شذوذاً عن القياس او السماع في الفاظ اللغة وأحكامها وتعلقاً بأساليب وتراكيب لايحكمها طبع ، ولا يعينها ذوق ، ولا تلائم الحياة ، ولا تنطبق على ماتقتضيه الحالة . مما تدعو معه الحاجة الى أن يكون هناك من الجهابذة المحققين من يتفرغ لاصلاح الخطأ ، والإهابة بالكتاب الى اتباع المنهج السديد .. فان الاستمرار على ذلك والتهاون به مما يفسد اللغة ويذهب برونقها .

فهل لجريدة السياسة الغراء ان تعنى بسد هذه الحاجة ورأيها موفق وهمتها عالية .

***

ولعل القارئ الكريم يذكر ان علامتنا المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء ، كان اول من تصدى للتنبيه على الغلط فأنشأ في ذلك الفصول الطوال في مجلته في لغة الجرائد ، وفصولاً أخرى في أغلاط العرب ، واغلاط المولدين . مما يجدر بكل اديب الرجوع اليه والاستبصار

نشرت في جريدة السياسة الغراء في العدد ٢٦٢ بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٣

به .. وقد مات رحمه الله وفي نفسه حزازات من لغة الجرائد ، كما مات قبله الفراء وفي نفسه شيء من حتى .. وقد حاول المجمع العلمي في دمشق في المدة الأخيرة ان يخلفه فلم يزد على تكرار ماقاله . وكان الأولى به ان يعيد نشر مقالات شيخنا اليازجي ويكفي نفسه مؤونة هذا العناء .

ومن العجب ان ترى الأغلاط التي نبه عليها لاتزال متفشية الى اليوم .

***

وهنا أتطفل على القارئ الكريم بايراد شيء على سبيل المثال من تلك الأغلاط التي لايخلو منها كتاب او جريدة . وبذكر بعض تلك التراكيب والأساليب التي ارى ان الأجدر بنا ان نتجافاها ، ولا سيما ونحن ندعي ان اللغة العربية لغتنا ، واننا نزلنا منها منزلة ابنائها ، واترك التبسط في ذلك كله الى اربابه .

من تلك الأغلاط قولهم فلان كفوءٌ لهذا الأمر اي اهل له اوقوّام به ، وهو من ذوي الكفاءة بالهمز ، وانما الكفؤ النظير تقول هو كفؤ لفلان اي معادل له ، والكفاءة المصدر من ذلك ، تقول لا كفاءة بيننا . واما المعنى الذي يريدونه فهو من معاني كفى المعتل ، يقال استكفيته أمر كذا اي كلفته القيام به فكفانيه وهو كافٍ لهذا الأمر وكفيٌّ له اي قوام به وهو من اهل الكفاية .

وقولهم أمكن له ان يفعل كذا ، ولا يمكن له ان يفعل كذا ، يعدونه باللام وهو متعدٍ بنفسه .

وقولهم عودته على الامر وتعود عليه واعتاد عليه ، والصواب حذف الجار في الكل .

وقولهم امر هامٌّ بصيغة الثلاثي ، والأفصح مهمٌّ بالرباعي

وقولهم هل سنفعل كذا وهل سيؤدي هذا الى كذا يريدون النص على الاستقبال في الفعل فيأتون بالسين بعد هل ، وهو خطأ لأن هل اذا دخلت على المضارع خصصته للاستقبال مثل السين وحينئذٍ يجتمع حرفان لمعنى واحد ، والصواب حذف السين

وقولهم هل لايجوز ان يكون الأمر كذا ، وهل لم تزر زيداً ، وهل ليس عمرو في الدار ، وهل اذا فعلت كذا كان كذا ، فيدخلون هل على النفي والشرط ، والصواب استعمال الهمزة في كل ذلك .

وقولهم حديث مستفاض ، ومنه قول ابي تمام

صلتانٌ اعداؤه حيث كانوا   في حديث من عزمه مستفاضِ

والصواب حديث مستفيض او مستفاض فيه

وقولهم سواءٌ عليه فعل كذا او كذا ، والصواب فعل كذا أم كذا ، وقد لحن في « المغني » قول الفقهاء سواءٌ كان كذا او كذا .

وقولهم قرأت هذا في صحيفة كذا من الكتاب ، يعنون الصفحة وهي احد وجهي الصحيفة ، وانما الصحيفة الورقة بوجهيها ، ومنه قول السياسة وغيرها « صحيفة الأدب » و « صحيفة السيدات » وليس هناك الا صفحةٌ واحدة .

ومن ذلك تأنيث البلد ، وابشع منه تأنيث الرأس ، والصواب التذكير فيها . ومنه تذكير السن والصواب تأنيثها ، ومنه رجل عجوز ولفظة عجوز من الصفات الخاصة بالمرأة ، الى غير ذلك مما ليس من غرضنا تتبعه وتعداده من انزال الكلمة في غير منزلها ، واستعمال صيغة في موضع صيغة أخرى ، اوحرف جر في موضع حرف جر آخر . مما نراه كل يوم في جرائدنا حتى في اكبرها وارقاها ، ولايجوز السكوت عنه .

اما التراكيب التي ورثناها عن الاجيال الماضية ولم يبق مسوغ لها في عصرنا هذا اما لهجنتها واما لانها لاتنطبق في شيء على حياتنا فكثيرة

من التراكيب المستهجنة قولهم رفع فلان عقيرته أي صوته ، والعقيرة الساق المقطوعة وليس في هذه المادة ما يدل على الصوت ، وانما الاصل في ذلك أن رجلاً قطعت احدى ساقيه فرفعها ووضعها على الاخرى وصرخ ، فقيل بعد لكل رافع صوته قد رفع عقيرته .

ومن ذلك قولهم كأن على رؤوسهم الطير ، أى ساكنون هيبة ، واصله في مايزعمون أن الغراب يقع على رأس البعير فليقط منه القراد فلايتحرك البعير لئلا ينفر عنه الغراب ، وغير ذلك . . ومن التراكيب التي لاتنطبق على حياتنا ، قولهم القى فلان عصا التسيار ، وفلان تشد اليه الرحال . وتضرب اليه اكباد الابل ، وملك عنان الامر وقياده ، وله فيه القدح المعلى ، وهل للعصا والرحال والابل والاعنة والمقاود والقداح دخل في حياتنا ؟ .

يقولون أن اللغة مرآة الامة ، وسجل تاريخها ، وصورة احوالها في كل ادوارها ، بحيث أن من تفقد الفاظها . وتدبر معانيها ، واستقصى تاريخها ، وجد فيها آثاراً تدل على ماضي الامة وتطورها من حال الى حال ، كما تدل الاحافير والعاديات على حالة الامم الغابرة . ولكن ما لنا لانزال نستعمل لغة البداوة ، وقد انفسح بيننا وبينها الامد ، وانقطعت بيننا كل صلة . واذا تفقد الناس في المستقبل البعيد لغة هذا العصر ، افلا يقولون اننا كنا في الجيل العشرين عصر الحضارة الراقية عصر السيارات والترامات والطيارات والسكك الحديدية بدواً رحلاً . وافقنا الوحش في سكنى مراتعها ، وخالفناها بتقويض وتطنيب كما قال المتنبي ؟

لاتكون لغةٌ حيةً الا اذا انطبقت على حياة الامة التي تستعملها ، وما استعمال لغة البداوة في عهد الحضارة الا من قبيل انزال الشيء احلال غير محلهِ .

ثم إن هناك تراكيب أخرى لاكتها الأفواه حتى كادت تمجها، ومع ذلك لانزال حريصين على استعمالها لانتحول عنها يمنةً اويسرة. من ذلك قولهم نشد فلان ضالته ، وهذه هي الضالة المنشودة ، وفلان يصيد في الماء العكر ، وتلك حال تنذر بالويل والثبور وعظائم الامور ، ومزق فلان فروة فلان ونحت اثلته ، مما اجتزىء منه بهذا القدر .

اما الأساليب فيحتاج الكلام عنها الى مقالةٍ برأسها نرجئها الى فرصة أخرى .



تطور الصحافة

أن صحافة كل امه تابعة لها . لاتجد صحافة راقية في امة منحطة ، ولا تجد صحافة منحطة في امة راقية . ومن قابل صحافة اليوم بما كانت عليه الى عهد قريب ، رأى انها قد دبت فيها الحياة ، واخذت تترقى يوماً فيوماً تبعاً لنهوض الامة وتطورها .

وهذه بعض الوجوه التي تتميز بها صحافة اليوم عما كانت عليه قبله.

(١) نزل الى ميدان الصحافة كبار الناس اصحاب الجاه العريض والثروة الطائله من زعماء السياسة ، يستعملونها للتبشير بمذاهبهم ، ينفقون عليها عن سعة . فصارت اكثر الصحف تعيش على اصحابها ، بعد أن كان اصحابها يعيشون عليها ، بل يبتذلونها في سبيل التعيش والتكسب . فأثرى القليلون ، وادركت الكثيرين حرفة الادب .

(٢) جعلت الصحافة تعنى بالعلم والادب عنايتها بالسياسة ، فكانت السياسة سبباً لترويج العلم والادب ، وكان العلم والادب سبباً لترويج السياسة . فهي اول وهما المحل الثاني اوهما اول وهي المحل الثاني .

وقد كانت جريدة السياسة الغراء في طليعة هذا الدور ، فهي تعيش على اصحابها ، وفيهم اصحاب الجاه العريض والثروة الطائلة . وهي تبحث في السياسة والعلم والادب والاجتماع وغير ذلك ، وفيها من

نشرت في جريدة السياسة الغراء في العدد ٢٥٣ بتاريخ ٢٢ اوغسطس سنة ١٩٢٣

الكتاب من اصحاب منذهبها من انتهت اليهم الرياسة في صناعة القلم .
مما اضطر غيرها الى متابعتها فاختارت هذه الدكتور منصور فهمي
وغيرها المازني وغيرها العقاد . وخصصت بعضها صفحة في الاسبوع للادب
وأخرى للالعاب الرياضية وأخرى لغير ذلك . فنهضت الصحافة باولئك
الزعماء وهؤلاء الكتاب الى مستوى راقٍ تتراجع دونه سوابق الهمم ..
كان الكاتب الواحد يتولى بنفسه كتابة الجريدة من اولها الى آخرها ،
فيضطر الى السرعة ويرضى بما يجيء لا بما يجب . واذا تولاه الفتور اوأخذه
الاعياء شغل القسم الأكبر من جريدته بفضول القول ومستهجن البحث .
فصار اليوم لأكثر الجرائد كتاب عديدون ، قد لا يصيب الواحد منهم في
الاسبوع غير مقالة واحدة يتبسط فيها ماشاء علمه وادبه .

وكانت الجريدة الواحدة لاتعنى الا بالسياسة على غير علم ولا حنكة
فتبرم قراءها . فأصبحت اليوم معرضاً لشتى الاغراض مما ينفع الناس
ويهمهم الاطلاع عليه .

كانت اكبر جريدة قبل اليوم ذات اربع صفحات يشغل القسم
الاكبر منها الاعلانات . فأصبحت اليوم ذات ثماني صفحات كبيرة
لاتشغل الاعلانات منها قسماً كبيراً .

واما القراء فقد كانوا قبل اليوم يكتفون من قراءة الجريدة بامرار
النظر ، ولا يقرأون شيئاً الا ادركهم الضجر ، فصاروا اليوم يراقبون
وقتها مراقبة المشوق المستهام ، ولايقرأونها الا بتدبر واهتمام . ولو كانت
سياستها على غير مذهبهم .. ولعل الناس لايقرأون اليوم غير الجرائد ..

ولا بد ان يقل عدد المتطفلين على الكتابة بعد اليوم . ولا بد ان
يرتقي ذوق القراء فلا تقرأ جريدة لايشترك في كتابتها صاحب كفاية ..

لن يكتب بعد اليوم في السياسة الا الاختصاصي في السياسة ، ولن يكتب في الأدب الا الاختصاصي في الأدب ، ولن يكتب في العلم الا الاختصاصي في فرع من فروعه . ولن يكون صاحب كفاية الا مقدوراً قدره .

ومتى كان اصحاب الكفايات ، وكبار الناس ، هم اساتذة الامة وزعماءها ، سارت في طريقها على هدى الى الأحسن والاعلى . الا ان هناك موضع نظر لابد من الاشارة اليه استيفاءً للحديث

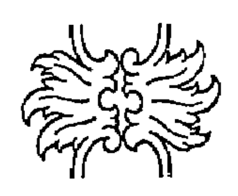
يظهر ان الصحف اليومية على ارتقائها لاتحتمل متابعة البحث في موضوع واحد او التقصي فيه ، ومن تتبع آثار الاستاذ طه حسين في جريدة السياسة الغراء ، رأى انه طرق ابحاثاً كثيرة طريفة لم يسبقه اليها احد في اللغة العربية ، وكلها تشف عن بصيرة نيرة وعلم نضيج بل تدل على انها كتب مما يكتب واعلم مما تقرأه ، لاتقرأ له شيئاً الا تركك تشعر أن الذي قرأته ليس الا قليلاً من كثير ، على حين لاتكاد تقرأ شيئاً لكثيرين غيره الا شعرت ان ما قرأته هو كل ما عندهم بل اكثر مما عندهم . بل قد تشعر انهم قد عدوا طورهم وتعرضوا لما ليس من شأنهم او اختصاصهم ، وأنهُ كان الاولى بهم ان لايتعرضوا له ..

ولكن الاستاذ على اعجاب القراء بكل ما يكتب ، وتطلعهم الى المزيد منه ، لايكاد يتناول بحثاً الا طواه الى غيره فغيره ، ولا يعود الى بحثِهِ الاول الا بعد ان يعتقد القراء انه لن يعود اليه . وقد يكتفي من البحث بما لا يرضيه . وعذره انه يكتب في صحيفة يومية ، فلو الف كتاباً او كتب في مجلة علمية لكانت ابحاثه اوفى . مما يجوز معهُ ان يقال ان العلم في الصحف اليومية هو في المحل الثاني ، وان السياسة هي في المحل

الأول . وان الصحافة لم تعن بالعلم الا خدمةً للسياسة ، اغراءً للقراء على اختلاف مذاهبهم بالاقبال عليها . واستدراجاً لهم من حيث يشعرون ولا يشعرون الى انتحال مذهبها . ولم يكن هذا التنقل في البحث على غير إستيفاء ولا استقصاء الا لانه اشوق للقراء وادعى لاهتمامهم . فيكون مثل الصحافة اليوم مثل المبشرين بالدين يؤسسون المدارس ويقيمون المستشفيات ويعنون بالألعاب الرياضيه . لا للتعليم ولا للعناية بالمرضى ولا لترويج الألعاب الرياضية . ولكن تذرعاً بذلك كله الى نشر الدعوة .

ان استخدام العلم للسياسة ينفع السياسة ولكن لا يرقي العلم بل يحط من شأنه .

لتشتغل الصحافة بالسياسة ، وليدعُ كلٌّ الى مذهبه ، ولكن لتعط العلم والأدب حقهما ، ولتجلهما عن ان يكونا وسيلة في يد الساسة .



— تطور اللغة في الفاظها واساليبها —

(١)

ارجو من القارىء الكريم ان يعير هذه «المراجعات» التي دارت بيني وبين الامير شكيب ارسلان احد اركان النهضة واكبر زعماء الادب في هذا العصر حول المذهبين القديم والجديد في الكتابة جانب اهتمامه .

تتطور اللغة في الفاظها وأساليبها تطوراً مستمراً في تؤدة وخفاء ، فلكل عصر بل لكل اقليم في كل عصر لغته واسلوبه حتى انك لتستطيع ان تعرف القول من اي عصر او من أي اقليم هو ، وان كنت لا تعرف قائله . واذا كنت ممن اولعوا بالأدب العربي فلابد ان تكون قد رأيت آثار هذا التطوُّر في كل عصر وكل اقليم .

وقد كان هذا التطور في العصور العريقة في القدم ، ايام كانت الامة الواحدة تنقسم الى قبائل متعادية ، تعيش في اقاليم مختلفة في الخصب والجدب ، والاعتدال والانحراف ، والشدة والرخاء وما الى ذلك من اختلاف المجاورات والحالات الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، سبباً لتفرع اللغات بعضها من بعض . تنقسم به اللغة الى لهجات ، ثم تستقل كل لهجة لغة بنفسها . كما ترى آثار هذا الاختلاف لعهدنا هذا في اللغتين

نشرت في جريدة السياسة في العدد ٢٨٣ بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٣

المحكية والمكتوبة . فان لكل اقليم من الأقاليم العربية لغة محكية ولغة مكتوبة تخالفان مالغيره كثيراً او قليلًا ، واللغتان خاضعتان للتطور المستمر ، فلغتا مصر المحكية والمكتوبة اليوم غيرهما قبله ، وكلتاهما غير غير لغتي سوريا . من امثلة ذلك في اللغة المحكية انهم يسألون في فلسطين اذا لقي الواحد الآخر عن حاله ، وفي دمشق عن لونه ، وفي مصر عن زيه ، وفي لبنان عن خاطره . وقد كان الناس قبل هذه النهضة الأخيرة ، قبل انتشار لغة المدرسة ، ولغة الصحافة ، ولغة التمثيل ، ولغة الغناء ، لو سار السوري في مصر ، او المصري في سوريا ، لسار بترجمان . بل لو تغيب السوري او المصري عن بلاده الى بلاد لايسمع فيها لغته لعشرين سنة او اقلّ ، ثم رجع الى بلاده ، لرأى من تطور اللغتين المحكية والمكتوبة فيها مالم يكن له به عهد ، وما يحسُّ معهُ انه اصبح غريباً في قومه .

ومن امثلة ذلك في اللغة المكتوبة ان السوريين يجمعون لفظة « مَيل » بمعنى الهوى على اميال كسيف واسياف . وقد شاع هذا الجمع في سوريا ومصر دهراً طويلًا . ثم رأينا ان المصريين اخذوا يجمعون هذه اللفظة على ميول كسيف وسيوف . وكلا الجمعين صحيح . ولعل السوريين يعدلون مع الأيام عن اميال الى ميول بحكم التقليد .

ومن ذلك ان السوريين يقولون بحث عن الأمر او في الأمر . ولكن رأينا كثيرين من كتاب مصر يقولون بحث الامر بدون حرف جر .

ومن ذلك ان السوريين يقولون سمى فلان ولده كذا على وزن فعل بتشديد العين ولكن المصريين عدلوا في الزمن الأخير عن وزن فعل الى وزن أفعل فهم يقولون اسمى فلان ولده كذا ، وكلا الوزنين صحيح وقد استعمل المتنبي وزن افعل في قوله .

يقولون لي ما انتَ في كل بلدة   وماتبتغي؟ ما ابتغي جل ان يُسمى

ولكن وزن فعل اشهر ٠

ومن ذلك لفظة « فحسب » [١] فانها درجت في هذه الايام على السنة المصريين فتابعهم في استعمالها بعض السوريين وقد كانوا يستعملون لفظة « فقط » ٠

ومن ذلك النسبة الى طبيعة وبديهة ، فان السوريين يقولون فيهما طبيعي وبديهي جرياً على الاستعمال دون القياس ، واما المصريون فجعلوا يقولون طبعيّ وبدهيّ جرياً على القياس دون الاستعمال ٠

ومن ذلك ان السوريين يقولون تمدَّن الرجل اي تخلق بأخلاق اهل المدن وانتقل من حالة الخشونة والبربرية والجهل الى حالة الظرف والانس والمعرفة ، اما المصريون فيقولون في ذلك تمدين ٠ (راجع القاموس)

وهناك الفاظ وتعبيرات كثيرة انفرد بها احد الفريقين دون الآخر ، مما تستطيع معه ان تعرف القول هل هو سوري ام مصري ٠ بل قد تعدى هذا الاختلاف لغة الأدب والصحافة الى لغة العلم ، فاذا قابلت كتب سوريا في الطبيعة او الكيميا او الحساب او الجغرافيا اوغير ذلك بكتب مصر رأيت انه يكاد يكون هناك لغتان ٠ ولولا وحدة الأصل ، واعتبارات كثيرة تربطنا بذلك الأصل ، فلا نخرج عنهُ الا رجعنا اليه ، لاتسعت مع الايام شقة الاختلاف الى ان تصبح اللغة العربية لغتين لاتكادان تتشابهان في شيء ٠

---

[١] استعملها ابن مالك في قوله في باب عطف النسق

واتبعت لفظاً « فحسبُ » بل ولا   لكن ، كلم يبد امروٌ لكن طلا

هذا في اللغة، واما الأساليب فهناك مذهبان: مذهب قديم ومذهب جديد. واني أحاول هنا ان أشير الى الفرق بين المذهبين على قدر ماتعين عليه البصيرة الضعيفة.

مما اولع به اصحاب المذهب القديم الى يومنا هذا تكرار الكلام في غير مواطن التكرار، والاسراف في استعمال المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها. فهم لا يأتون بكلمة الا اتبعوها بمرادفاتها، فاذا قالوا تمادى الرجل في ضلاله، قالوا ولج في غوايته وعمه في طغيانه ومضى على غلوائه. واذا قالوا احزنني هذا الامر، قالوا وشجاني وامضني وارمضني واقلقني واقضَّ مضجعي. واذا قالوا سرني امر كذا قالوا وافرحني وحبرني وابهجني وابلجني واثلج صدري.

وهنا استأذن القارىء الكريم بتقديم مثل على ذلك من رسالة امامي لكاتب كبير قال:

« يا اخواننا ان الصارخة القومية، والنعرة الجنسية، قد بدأت في الاقوام، ونشأت مع الامم، مذ الكيان، ومنذ وجد الاجتماع البشري، وتساكن الانسان مع الانسان » وقال « مهما انتبذ لنفسه مكانا منزوياً وتنحى جانبا معتزلا » وقال « مهما ترامت به عن منبته الاقطار وتباينت بينه وبين اهله الاوطان والاوطار » وقال « وان هذه النعرة الجنسية والحمية القومية وان عم امرها جميع الامم، ولم يخل منها عرب ولا عجم، فقد اختص منها العرب بالشقص الاوفر والحظ الاكمل » فتأمل.

وسبب ذلك اما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية، واصحاب هذا المذهب يحسبون ان اللغة هي كل شيء، فاذا حمل احدهم على ظهر قلبه مقامات الحريري وديوان الحماسة والمعلقات والمفضليات فقد صار كاتباً

تحريراً او (١) ان يكون ذلك متابعة لماورد في بعض اقوال العرب من الترادف لضرورة كقول الشاعر « فالفى قولها كذباً وميناً » أوتقليداً لاحمد فارس الشدياق في كتابه « الساق على الساق ». ولكن احمد فارس لم يأت بالمترادفات لانه يذهب الى هذا النوع من الكتابة ، وانما اراد ان يضع كتاباً في المترادفات ككتاب الالفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، فبدلاً من ان يسرد المترادفات لغير مناسبة ، اتى بها في سياق كلام ، على اعتقاد منه ان ذلك اشوق للقارىء .. ومهما يكن السبب فان هذا النوع من الكتابة غير طبيعي ، اوغير عربي ، او على الاقل لايستمرئهُ ذوق هذا العصر .

***

الكلام ثلاثة انواع : اما ان يكون مساوياً للمعنى المراد لاينقص عنه ولا يزيد عليه وهو المساواة ، واما ان ينقص عنه وهو الايجاز ، واما ان يزيد عليه وهو الاطناب .. اما المساواة فمقبولة مطلقاً ، واما الايجاز والاطناب فلهما مواطن وشروط نص عليها البيانيون. وليس في مانصوا عليه ما يجيز ان يكيل الكاتب المترادفات كيلاً .

وانت اذا تفقدت كلام العرب في اشعارهم وامثالهم وخطبهم

---

(١) معطوف على قولي « وسبب ذلك اما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية » وكان الأولى ان أجعل « اما » في موضع « أو » لأن الاصل في « اما » ان لاتستعمل على اختلاف معانيها الا مكررة نحو اذهب اما راكباً واما ماشياً وان جاز الاستغناء عن الثانية بأو كما فعلت انا هنا كقول الشاعر :

وقد شفني ان لايزال يروعني   خيالك اما طارقاً او مغادياً

وهو من شواهد النحو

ورسائلهم علمت انهم يميلون الى الايجاز، وانهم يكرهون التطويل الممل. بل ان عندهم نوعاً من الحذف يقال له « الاكتفاء » فبدلاً من ان يقولوا « لاحول ولا قوة الابالله العلي العظيم » قالوا « لاحول ولا » ومنهم من يختصر هذه ايضاً فيقول « لاولا » .. فما قولك في عصر كادت تتغلب فيه لغة التلغرافات . فلو كان الكاتب يدفع ثمن كل كلمة يقولها لما سلك من طرق الأداء الا اخصرها واوضحها . ولو كان ينقد عن كل كلمة يقولها لما وجد من يشتري له قولاً .

بل نحن في عصر تغلبت فيه روح الاقتصاد ، فاذا لم يراعِ الكاتب الاقتصاد فيما يكتبه، في وقته ووقت القارىء ، لم يجد من يقرأه..

بل نحن في عصر المعنى فيه الاول واللفظ المحل الثانى، وبعبارة أخرى اذا لم يرتكز الادب فيه على العلم فلا قيمة له .



ـ لكل مقام مقال ـ

بينما انا اسرّح الطرف في صحيفة الأدب من «السياسة» الغراء اذ وقع نظري على مقالة لأحد أدباء فلسطين عنوانها «تطور اللغة في الفاظها واساليبها» وهو موضوع طالما نازعني اليه خاطري وشعرت بافتقار الأدب العربي الى بحث وافٍ بمكانه ، اذ كان كل دور من ادوار اللغة العربية سواء كان دور الجاهلية والمخضرمين او العهد الأموي او العصر العباسي او القرون التي بعده لايخلو من ديباجة خاصة تظهر على ألسن خطباء ذلك الدور وأقلام كتابه ، وان كان النصاب الأصلي للغة لايزال واحداً . . ولم ينحصر اختلاف الاسلوب وتداول طائفة خاصة من الألفاظ بالادوار والأعصار ، بل انك لتجده بين الاقاليم والأمصار ، فالأندلس منزع يعرفه من الف مطالعة كتب ذلك القطر ، ولليمن مذهب لايشبه مذهب المنشئين في العربية من فارس في كثير من الامور ، ولمصر لهجة خاصة يعرف الناقد البصير منها نسبة مؤلف الكتاب ولو لم يكن اسمه عليه كما ترى ذلك من الف ليلة وليلة ، وللشام اسلوب يختلف شيئاً عن اسلوب اهل مصر في الكتابة وكثيراً في الحديث ، كما ان للعراق نمطاً غير نمط الشام ومصر وهلم جرّا . ولعلنا نلم بهذا الموضوع في وقت آخر . ولقد انعمت

رد الامير نشر في جريدة السياسة الغراء في العدد ٣١٩ بتاريخ ٧ نوفبر سنة ١٩٢٣

النظر في مقال «تطور اللغة في الفاظها واسالیبها» فوجدت الكاتب الأديب صاحبها اتى بشيءٍ منه واصاب بعض شواكله، ولكنه خرج فيهِ احياناً عما هو من باب تطور اللغـة باختلاف الاعصر والأمصار الى ماليس منه كتمثيله لهذا التطور بقوله ان السوريين كانوا يجمعون لفظة ميل بمعنى الهوى على اميال كسيف واسياف وقد شاع هذا الجمع في مصر وسورية دهراً طويلاً ثم رأينا ان المصريين اخذوا يجمعونهُ على ميول كسيف وسيوف وكلا الجمعين صحيح ولعل السوريين يعدلون مع الايام عن اميال الى ميول بحكم التقليد .

والحقيقة ان ليس هذا العدول عن اميال الى ميول اثراً من آثار التطور الذي اراده بل كانت العـامة ومن لا يحقق في اللغـة من الخاصـة يجمعون ميلاً بفتح الميم على اميال يجرونهـا مجرى ميل بكسر الميم. فجاء من قال لهم ان فعلاً بفتح الفـاء لايجمع على افعال بل على فعول وان كان ورد شيء من ذلك فمن الذي لايقاس عليه فعدل عند ذلك الكتاب عن جمع ميل بالفتح على اميـال الى جمعه على ميول نظير بيع وبيوع ، وقد سبق انهم كانوا يجمعون خصما على اخصام وقد رأيت هذا الجمع في كلام كاتب مصري من الادباء الراسخين الذين نبغوا منذ نحو نصف قرن فلما نبه بعضهم الى أن جمع خصم على اخصام غلط عدلوا الى جمعه الصحيح على خصوم فلا نجد كاتباً الآن الا وهو يقول خصوم ويتجنب اخصـام . ثم انه قد ورد في كلام اليازجي الكبير جمع فعل بفتح الفاء على افعال وذلك في قوله « مضى بجمع الافضال وهي عبيده» فعابوه فيه وذكر ذلك احمد فارس في مناقشة مع ابنه، فلذلك لايجمع فضلا على افضال اليوم الا العامة يقولون لاننكر افضـالك . فانت ترى ان

السبب في ذلك التطور هو متابعة القاعدة واعتقاد تنكب الخطأ . على ان الخطب يسير فان فعلاً بفتح الفاء اذا كان من الاجوف كثيراً ما يجمع على افعال وله امثال لا تحصى .

وكذلك بدهي وطبعي ' اخذ المصريون يستعملونها ذهابا الى ان بديهي وطبيعي هو غلط في النسبة « مع ان السوريين يرونه غلطاً مشهوراً هو اولى من الصواب المهجور ' ويرون له في «ولكن سليقي اقول فاعرب» شاهداً مؤنساً. فالعدول عن اميال الى ميول وعن طبيعي الى طبعي كان في اعتقاد من فعله مجرد اتباع للقاعدة لا مجرد عدول عن اصطلاح الى آخر اذ كلاهما صحيح . ثم وصل الكاتب الى قوله «هذا في اللغة واما في الاساليب فهناك مذهبان مذهب قديم ومذهب جديد واني احاول هنا ان اشير الى الفرق بين المذهبين على قدر ما تعين عليه البصيرة الضعيفة . مما اولع به اصحاب المذهب القديم الى يومنا هذا تكرار الكلام في غير مواطن التكرار (اعتراف منه هنا بان للتكرار مواطن) والاسراف في استعمال المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها . فهم لا يأتون بكلمة الا اتبعوها بمرادفاتها فاذا قالوا تمادى الرجل في ضلالهِ قالوا ولج في غوايتـه وعمه في طغيانه ومضى على غلوائه . واذا قالوا احزنني هذا الامر قالوا وشجاني وارمضني واقلقني واقض مضجعي . الى ان يقول بل استاذن القارىء الكريم في تقديم مثل على ذلك من رسالة امامي لكاتب كبير قال : يا اخواننا ان الصارخة القومية والنعرة الجنسية قد بدأت مع الأقوام ونشأت مع الأمم مذ الكيان ومنذ وجد الاجتماع البشري وتساكن الانسان مع الانسان" وقال "ومهما انتبذ لنفسه مكاناً منزوياً وتنحى جانباً معتزلاً " وقال "ومهما ترامت به عن منبتهِ الاقطار وتباينت بينه وبين اهله الاوطان

والاوطار الخ » ثم قفى على ذلك صاحب المقالة بقوله « تأمل، وسبب ذلك اما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية (كذا ولعله سها عن وضع «إما» في الجملة الثانية سهواً اذ «اما» هذه لابد من تكرارها عند التخيير كما لا يخفى) واصحاب هذا المذهب يحسبون ان اللغة هي كل شيء فاذا حمل احدهم على ظهر قلبه مقامات الحريري وديوان الحماسة والمعلقات والمفضليات فقد صار كاتباً نحريراً ، او يكون ذلك متابعة لما ورد في بعض اقوال العرب من التكرار اضرورة كقول الشاعر « فالفى قولها كذباً ومينا » او تقليداً لأحمد فارس الشدياق في كتابه « الساق على الساق » ولكن احمد فارس لم يأت بالمترادفات لأنه يذهب الى هذا النوع من الكتابة ، وانما أراد ان يضع كتاباً في المترادفات ككتاب الالفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني الى ان قال : « ومهما يكن السبب فان هذا النوع من الكتابة غير طبيعي او غير عربي (كذا) او على الأقل لا يستمرئه ذوق هذا العصر » ثم قال « وانت اذا تفقدت كلام العرب في اشعارهم وامثالهم وخطبهم ورسائلهم علمت انهم يميلون الى الايجاز وانهم يكرهون التطويل الممل » ثم عاد فاستدرك بقوله : ان للاطناب مواطن وشروطاً نص عليها البيانيون وليس في مانصوا عليه مايجيز ان يكيل الكاتب المترادفات كيلاً الخ » .

فظاهر ان هذا الكاتب الأديب يقصدني في تعريضه، لاستشهاده ببعض جمل من نداء كان الوفد السوري وجهه الى الامة العربية قاصيها ودانيها وحاضرها وباديها وخاصيها وعاميها ، مراعياً حالة من يخاطبهم وضرورة تمكين المعاني من نفوسهم وتحريك عواطف حميتهم مما هو في كل لغة وفي كل منطق وفي كل أدب موطن التكرار الاكبر ومحل التأكيد الالزم

اذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة الى الجماهير دائماً على هذا النسق ولم تكن قاعدة «خير الكلام ماقل ودلّ» موضوعةً لمثلها . الا اذا اختلت قاعدة أخرى هي اعم منها وهي «لكل مقام مقال» ، والفصاحة هي المطابقة لمقتضى الحال .

وقد كنت فكرت في أن اترك هذا الكاتب وشأنه وان اعرض عنه واتجاهل انتقاده تاركاً اللغة العربية ونظمها ونثرها ومتونها وأصولها وامثلتها ترد عليه وتقنعه بخطئه ، لولا انني رأيتهُ وارجو منه ان لا يؤاخذني على هذا القول ، واضعاً نفسه موضع أُستاذ اللغة ، وشيخ الصناعة ، والجهبذ الذي يقبل هذا ويزيف ذاك ، والقاضي الفيصل الذي يحكم ولا معقب لحكمه ، ماضياً في غلوائه مسروراً بآرائه راضياً عن انحائه ، فحرصت على ان لا يتمادى في وهمه ، واشفقت من ان يتصل وهمه الى غيره . وعولت على ان ابين له مناهج اللغة في باب الايجاز والمساواة والاطناب ومقام كل منها ليعلم ان مقام منشورنا المرسل الى الامة العربية جمعاء في آفاق الارض ومناكبها ومشارق الشمس ومغاربها هو مقام اطناب كما لا يخفى على كل من شدا شيئاً من الادب اوطالع شيئاً من آثار هذه الامة .

ولكنني قبل الشروع في موضوعي احب ان اسأله عن قوله « واما الأساليب فهناك مذهبان مذهب قديم ومذهب جديد » فانني لا اعلم مذاهب جديدة الا في العلم والفن ، واما في الادب واللغة فلا اعرف الا مذهباً واحداً هو مذهب العرب ، وهو الذى يريد ان يسميه بالمذهب القديم ، وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية ان يحتذي مثاله ويقرب منه ما استطاع ، لانه هو المثل الاعلى والغاية القصوى ، واذا اراد الكاتب العصري ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة ، استنفد جميع

منتهى في الباس هذه المعاني الجديدة حلل الأسـاليب العربية القديمة التي هي اصل اللغة والطراز المنسوج على منواله . وقصـارى الاديب العربي اليوم ان يتمكن من افراغ الموضـوع العصري في قالب عربي بحت لا يخرج باللغة عن اسـلوبها ولا يهجن لهجتها ولا يجملها لغة ثانية ، اذ كان التباعد عن الفصـاحة والحرمان من حظها هما على مقدار التجانف عن اسلوب العرب عندما كانوا عرباً لم تخامر لغتهم العجمه ولم تفسـد منهم السليقة . وان القمة العليا من ذلك هي لغة الجاهلية وصدر الاسلام ثم مايليه نوعاً عندما كانت العربية في عنجهيتهاوالفصاحة في ابان سورتها . فاما المذهب الجديد الذي اشار اليه في الادب والانشاء العربي فلا نعلمه في المذاهب ولا وصل اليـنـا خبره . فحبذا لواتانا صاحبنا بتعريف المذهب الجديد هذا ودلنا على امثلة منهُ وكتب مؤلفة فيه ، واخبرنا من هم اساطين هذا المذهب وحملة اعلامه . فاننا نقر بكوننا لانعرف في العربي الا مذهباً واحداً كلما قرب الى نسق الاولين كان اقرب الى الفصاحة. واما في العلوم والفنون فذاك موضوع آخر كل يوم نحن منها في شيءٍ جديد ، فلا يجوز ان نخلط هذا بذاك.

ان اللغة الفرنساوية التي هي افصح لغات اوربا لها اسلوب خاص ونمط قائم بها قد رست عليه قواعدها منذ نحو ثلاث مئة سنة ، وبلغ كماله في عصر لويس الرابع عشر الذى يماثل صدر الاسلام في العربية . فكل كاتب في اللغة الفرنسوية يخالف اسلوبها الذي اصطلح عليه أدباء الفرنسيس يقولون له : هذا ليس بفرنساوي . ولا ينفعه عند ذلك ان يقول لهم : هذا مذهب جديد في الكتابة فانهم يجاوبونه ان التجدد في الكتابة لابد لأجل ان يكون مقبولاً ان يتمشى على الاسلوب الفرنساوي المصطلح عليه .

انني أريد ان انزه حضرة الكاتب صاحب مقالة التطور في اللغة عن ان يكون مقصده الانتقاد لأجل الانتقاد، ولاثبات فضله واظهار طوله على غيره. ولكنني من جهة أخرى اعجب من كون اديب بارع مثله متصد للفتيا في اللغة تصدي حضرته يذهب عنه مايليق بكل اديب ان يطلع عليه.

قال في صبح الأعشى في باب الاطناب: وهو الاشباع في القول وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز مثل قوله تعالى « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » وقوله عز وجل « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » كرر اللفظ في الموضعين تأكيداً للأمر واعلاماً انه كذلك لامحالة (تأمل) الى ان يقول: وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر اتاك اتاك اللاحقون.

ثم ذكر ماقيل في المساواة والايجاز والاطناب والتفاضل بينها فقال وذهب قوم الى ان الاطناب ارجح واحتجوا لذلك بأن المنطق انما هو بيان والبيان لايحصل الا بايضاح العبارة وايضاح العبارة لايتهيأ الا بمرادفة الالفاظ على المعنى حتى تحيط به احاطة يؤمن معها من اللبس والابهام، وان الكلام الوجيز لايؤمن وقوع الاشكال فيه، ومن ثم لم يحصل على معانيه الا خواص اهل اللغة العارفين بدلالات الألفاظ. (ليتذكر القارئ ان منشور الوفد السوري لم يكن موجهاً الى خواص اهل اللغة فقط بل العوام من قرائه اكثر من الخواص) بخلاف الكلام المشبع الشافي فانه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في جهته. ويؤيد ذلك ماحكي انه قيل لقيس بن خارجة ماعندك في جمالات ذات

حسن . قال : عندي قرى كل نازل ورضا كل ساخط وخطبة من لدن تطلع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل وانهى عن التقاطع . فقيل لأبي يعقوب الجرمي : هلا اكتفى بقوله . آمر فيها بالتواصل عن قوله وانهى عن التقاطع فقال : او ماعلمت ان الكناية والتعريض لاتعمل عمل الاطناب والتكشف . الاترى ان الله تعالى اذا خاطب العرب والأحزاب اخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي واذا خاطب بني اسرائيل اوحكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً وقلما تجد قصة لبني اسرائيل في القرآن الا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم بخلاف الكلام المشبع الشافي فانه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في فهمه »

قال : وذهبت فرقة الى ترجيح مساواة اللفظ المعنى واحتجوا لذلك بأن منزع الفضيلة من الوسط دون الاطراف وانما الحسن انما يوجد في الشيء المعتدل » قال : قال في «مواد البيان » والذي يوجبه النظر الصحيح ان الايجاز والاطناب والمساواة صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لايخلفه فيه رديفه اذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع واذا وضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة .

ومنه يستنتج ان منشوراً طبعت منه الوف والوف من النسخ ليوزع على ملايين من الامة العربية في المدر والوبر لو جاء يكتبه الانسان كما يكتب رسالة الى رجل من طبقة عبد القادر الجرجاني ويجتهد في ايداع اوسع المعاني اقصر الألفاظ لكان ذلك من باب وضع الشيء في غير موضعه ولدل على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة .

ثم قال في صبح الاعشي : « فاما الكلام الموجز فأنه يصلح لمخاطبة

الملوك وذوي الاخطار العاليه والهمم المستقيمة والشؤون السمية ومن لايجوز ان يشغل زمانه بما همته مصروفة الى مطالعة غيره »

اذن ليست هناك مسألة تطويل ممل وايجاز مخل بل مسألة الايجاز في محل الايجاز والاطناب في محل الاطناب • فاذا خوطب الحكماء والعظماء والملوك بالكلام المشبع المبسوط المؤكد كان ذلك خللا باصول الكتابة ومنافياً للذوق السليم •• كما انه اذا خوطب الجماهير الذين لاتجد فيهم خاصياً الا كان بجانبه الف عامي ، بدقائق من البلاغه واشارات وكنايات تقتضي اعمال الفكر ، ولايدرك الجمهور مغزاها كان ذلك مخالفاً لآداب الكتابة وفات الغرض المقصود من الخطاب • نعم كان العرب يميلون الى الايجاز ولكن كانوا يميلون اكثر من ذلك الى وضع الشيء في محله •

قال في صبح الاعشى : «« واما الاطناب فأنه يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات مما يقرأ في المحافل والعهود السطانية ومخاطبة من لايصل المعنى الى فهمه بادنى اشارة الخ ""

الى ان قال نقلاً عن « مواد البيان » قال : اما انه لواستعمل كاتب ترديد الالفاظ ومرادفتها على المعنى في المكاتبة الى ملك مصروف الهمة الى امور كثيرة متى انصرف منها الى غيرها دخلها الخلل لرتب كلامهُ في غير رتبه ، ودل على جهله بالصناعة • وكذا لو بنى على الايجاز كتاباً يكتبهُ في فتح جليل الخطر حسن الأثر يقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الاشهاد من العامة ومن يراد منه تفخيم شأن السلطان في نفسه لأوقع كلامه في غير موقعه ونزله في غير منزله • لانه لااقبح ولا اسمج من ان يستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظائم

أمور المملكة او الدين فاذا حضر الناس كان الذي يمر على اسماعهم من الألفاظ وارداً مورد الايجاز والاختصار لم يحسن موقعه وخرج من وضع البلاغة الخ)

ولا أظن منتقدنا يقول انما هذا ينطبق على الكتب الواردة من السلطان في اخبار الفتوحات ، ومنشوركم هذا ليس عن السلطان ولا هو في فتح ، فالجواب عند ذلك ان المنشور الذي يوجه الى أمة كبيرة من وفد من وفودها في الاستنفار الى تلافي خطب او سد خرق او مقصدمن تلك المقاصدالعالية التي تتعلق بها حياة تلك الامةهو ايضاً في حكم كتب الفتوحات واجدر منها بمراعاة أصول المناشير العامة .

ولقد ورد في رسائل ابي اسحق الصابئ الذي كان رئيس كتاب ديوان الخلافة في بغداد كثير من الكتب التي تتشابه في المعنى اسجاعها وتتوالى مترادفاتها وقد اوضحت يومئذٍ في حاشية تلك الرسائل التي طبعتها ان هذا المذهب هو خلاف قاعدة الايجاز ولكنهُ مما يستحب في خطاب الامة ونداء الجمهور ممن لابد للكاتب ان يعيد المعنى عليهم ويصقله مراراً حتى يتشربوا معناه ويشتفوا مغزاه .

بقي علينا ان نأتي بشواهد على مذهب فصحاء العرب في استعمال المترادف وابراز المعنى الواحد بصور مختلفة . وهذا هو اكثر من ان تحيط بهِ المجلدات . وما على المكابر فيه الا ان يقرأ خطب العرب ونخب رسائلهم وغرر اقوالهم ويتصفح كتابات فحول البلاغة مثل الجاحظ والزمخشري وبديع الزمان والخوارزمي والصاحب بن عباد وابن العميد وابي اسحق الصابئ والقاضي الفاضل وابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم فيجد في كل صفحة من صفحات كتبهم شيئاً يحقق له كون هذا

المذهب مذهبهم عند مايقتضيه المقام ولكن لما كان المثل الحاضر اوقع في النفس توخينا ان نأتي بشيء من الأمثال مما حضرنا على طريق المصادفة فنقول :

« قال ابو الهلال العسكري في « الصناعتين » وهو من اساتذة الصناعة : فان صاحب العربية اذا اخلَّ بطلب هذه العلوم وفرط في التماسها فاتته فضيلتها وعلقت به رذيلة فوتها وعفى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله . »

فانت ترى المشابهة في المعنى بين اخلَّ وفرَّط والطلب والالتماس وفوت الفضيلة وعلوق الرذيلة وكذلك بين عفى وعمى والمحاسن والفضائل وليس الفرق بين هذه الالفاظ ومدلولاتها اعظم من الفرق بين الصارخة القومية والنعرة الجنسية وانها بدأت مع الاقوام ونشأت مع الامم منذ الكيان الخ . وبين مدلولاتها . بل كل ذلك من قبيل اشباع المعنى وتمكينه في ذهن السامع بالصور المختلفة .

وقال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب حسن التوسل : وهذه العلوم وان لم يضطر اليها ذو الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة والفكرة المنقحة والبديهة المجيبة والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من ازمة المعاني وصناعة الكلام يقول عن علم ويتصرف عن معرفة وينتقد بحجة ويتخير بدليل ويستحسن ببرهان الخ .

فان قيل الآن ان هذا ليس من الترادف لوجود فروق دقيقة بين قريحة وروية وفكرة وبديهة وحجة ودليل وبرهان ويتخير ويستحسن فالجواب ان هذه الفروق الدقيقة هي ايضاً في الجمل التي عابها علينا صاحب مقالة التطور مثل الانتباذ والتنحي والانزواء والاعتزال وترامت به عن منبته

الاقطار وتباينت بينه وبين اهله الاوطان والأوطار . وان كثيرين من أئمة اللغة ينكرون وجود مترادف حقيقي فيها . ويقولون ان الناس صاروا يعدون بعض الكلام مترادفاً لجهلهم بأصل معناه وانما هو تشابه لاغير . ولا ينبغي ان ننسى ان صاحب حسن التوسل لايتكلم عن جمهور اكثرهم ليسوا من اهل الفن بل كلامه موجه الى الخواص دون غيرهم ومع هذا فقد مر بك اطنابه .

وانظر الى قول ابي طالب حين خطب النبي (ص) خديجة : الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابرهيم وذرية اسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمنا ثم ان محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن اخي من لايوزن بأحد الارجحهُ ولا يعدل بأحد الا عدله .

هاك مثلًا من قول عثمان بن عفان (رضه) ان لكل شيء آفة وآفة هذا الدين وعاهة هذه الملة (تأمل في آفة وعاهة ودين وملة) قوم عيابون طعانون (تأمل ايضاً) يظهرون لكم ماتحبون ويسرون ماتكرهون . اما والله يامعشر المهاجرين والأنصار لقد عبتم عليّ اشياء ونقمتم مني اموراً (تأمل ايضاً) قد اقررتم لابن الخطاب بمثلها ولكنه وقمكم وقماً ودمغكم (انظر الى تقارب وقم ودمغ وكلاهما بمعنى اذل وقهر) حتى لايجترىء احد منكم يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه الا مسارقة اليه (وهنا المعنى واحد اشير اليه بصورتين مختلفتين ليزداد رسوخاً في فكر السامع)

فنظن ان عثمان بن عفان كان عربياً لابل من الطبقة الذين تؤخذ عنهم لغة العرب . وخطبته هذه معدودة من غرر الخطب التي يستشهد بها في البلاغة .

فانظر كم ثمة من الجرأة عند مايقول صاحبنا « هذا النوع من الكتابة

غير طبيعي او غير عربي » فان هذا النوع الذى وصفه بكونه غير عربي هو هذه الطريقة بعينها كما مر بك وكما سيأتيك :

واليك من كلام زياد بن ابيهِ الذي ضرب المثل بفصاحته فقيل اخطب من زياد : فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغيّ الموفي على النار مافيه سفهاؤكم . الى ان يقول : من تركـكم الضعيف يقهر والضعيفة المسلوبة في النهار لاتنصر والعدد غير قليل والجمع غير متفرق . الى ان يقول : اني لو علمت ان احدكم قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم اهتك له ستراً الخ .

عندك هنا الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والضعيف يقهر والضعيفة لاتنصر والكشف والهتك والقناع والستر . فماذا يقال لهذا ان لم يكن مترادفاً ؟ ولماذا هذا يجوز ويستشهد به في انموذجات البلاغة ويعاب قولنا (واما هذه النعرة الجنسية والحمية القومية وان عم امرها جميع الامم ولم يخل منها عرب ولا عجم الخ .

ولعبد الملك بن مروان ومكانه من البلاغة والفصاحة مكانهُ : فتنزل بكم جائحة السطوات وتجوس خلالكم بوادر النقمات وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همداً رفاتاً وتشتمل عليكم بطون الأرض امواتاً الخ ماهو المعنى الجديد بين جائحة السطوات وبوادر النقمات وبين تجعلكم رفاتاً وتشتمل عليكم الأرض امواتاً ؟ ام تقول هذا حشو ولو صدر من عبد الملك بن مروان . كلا ايها الاديب هذا تكرار وتأكيد من سلطان يريد ان يرهب رعيته وينذر قومه حتى يستقيموا على الطاعة . وهو ابلغ واوفى بالغرض من الكلام الذي قلّ ودلّ والذي ليس فيه تكرار معنى ، بل هو اوقع في نفوس السامعين مما لو اقتصرنا على قوله فتنزل بكم جائحة

السطوات وتطأ رقابكم العقوبة فتجعلكم رفاتاً . واليك من الحجاج بن يوسف من خطبة على اهل العراق : انني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها ، والله كأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى . الى ان يقول : لقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة واجريت من الغاية وان امير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها عوداً عوداً فوجدني امرها عوداً واشدها مكسراً فوجهني اليكم ورماني بكم يااهل الكوفة يااهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق لانكم طالما اوجفتم في الفتنة واضطجعتم في منام الضلال وسننتم سنن البغي وايم الله لالحونكم لحو العود ولاقرعنكم قرع المروة. والله لا احلف الاصدقت ولا اعد الاوفيت الخ ثم يقول : فاستوثقوا واعتدلوا ولاتميلوا واسمعوا واطيعوا وشايعوا وبايعوا اه .

تذكر تهكم صاحب المقالة بمن تمادى في ضلاله ولج في غوايته . وقابل ذلك بقول الحجاج هنا وتكريره ثلاث فقر متتابعة في معنى الفتنة والضلال والغي ثم تدبر قول الحجاج : اعتدلوا ولاتميلوا . فان الاعتدال وعدم الميل شيء واحد . ثم قوله اسمعوا واطيعوا وشايعوا وبايعوا : وكل هذا متقارب المعنى من قبيل الشقص الاوفر والحظ الاكمل » التي عابها علينا .

وخذ ماقاله ابوبكر الصديق لابي عبيدة ابن الجراح حينما ارسله الى علي رضي الله عنهم جميعاً عندما تلكأ علي عن المبايعة وهو من جملة كلام : ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك ولم تجب حيته برقيتك وقع اليأس واعضل البأس واحتيج بعد ذلك الى ماهو امر منه واعلق واعسر منه واغلق والله اسأل تمامه بك ونظامه على يديك فتأت له ابا عبيدة وتلطف

فيه وانصح لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم غير آل جهداً ولا قال
حمداً والله كالئك وناصرك وهاديك ومبصرك ان شاء الله امض الى علي
أخفض له جناحك واغضض عنده صوتك واعلم انه سلالة ابي طالب
ومكانه ممن فقدناه بالامس صلى الله عليه وسلم مكانه وقل له البحر مغرقه
والبر مفرقه والجوا كلف والليل اغدف والسماء جلواء والارض صلعاء
والصعود متعذر والهبوط متعسر والحق عطوف رؤوف والباطل عنوف
عسوف والعجب قداحة الشر والضغن رائد البوار والتعريض شجار
الفتنة والقحة ثقوب العداوة . الى ان يقول : ماهذا الذي تسول لك
نفسك ويدوي به قلبك ويلتوي عليه رأيك ويتخاوص دونه طرفك
ويسري فيه ظعنك ويتراد معه نفسك وتكثر عنده صعداؤك ولا يفيض
به لسانك . اعجمة بعد افصاح أتلبيس بعد ايضاح . الى ان يقول : زمان
كنت فيه في كن الصبا وخدر الغرارة وعنفوان الشبيبة . ومثله قول
الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن علي : اني اكره لفاطمة ميعة شبابه
وحداثة سنه . فقال له ابوبكر متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما
البركه واسبغت عليهما النعمة • ميعة الشباب وحداثة السن ثم البركه
والنعمة وكله من باب واحد . ومن جملة قول ابي بكر في تلك الرسالة
الى علي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انه لم يدع احدا من
اصحابه واقاربه وسجرائه (جمع سجير وهو الخليل الصفي) الا ابانه
بفضيلة وخصه بمزيه وافرده بحالة اتظن انه صلى الله عليه وسلم ترك الامة
سدى بددا عباهل مباهل (عباهل مهمله مسيبه ومباهل من ابهل
الوالي الرعية تركهم يركبون ماشاؤا) طلاحي مفتونة بالباطل مغبونة
عن الحق لارائد ولا ذائد ولا ضابط ولا حائط ولا ساقي ولا واقي ولا

هادي ولا حادي . كلاما اشتاق الى ربه ولا سأله المصير الى رضوانه وقربه الا بعدان ضرب المدى وأوضح الهدى وأبان الصوى وأمن المسالك والمطارح وسهل المبارك والمهايع ، والا بعد ان شدخ يافوخ الشرك باذن الله وشرم وجه النفاق لوجه الله الخ . الى ان انتهى بقوله : دعنا نقضي (كذا) هذه الحياة بصدور بريئة من الغل ونلقى الله بقلوب سليمة من الضغن » هل نحن محتاجون الى التنبيه على مامر بك من المترادفات والمعاني المبرزة في صيغ مختلفة اللفظ متحدة المآل ام تغنينا دراية القارئ عن الايضاح .

ومن كلام عمر في رسالة الى علي : ان اكيس الكيس من منح الشارد تألفاً وقارب البعيد تلطفاً ولا خير في علم مستعمل في جهل ولا خير في معرفة مشوبة بنكر . الى قوله : بل نحن في نور نبوة وضياء رسالة وثمرة حكمة واثرة رحمة وعنوان نعمة وظل عظمة (تأمل في قوله نور نبوة وضياء رسالة الخ .

وكان من جملة جواب علي : لما وقذني به رسول الله واودعني من الحزن لفقده وذلك انني لم اشهد بعده مشهداً الا جدد علي حزناً وذكرني شجناً (قابل هذه الجمل بما قاله صاحب مقالة التطور في هذا المقال وتأمل)

وما على القارئ الان يأخذ نهج البلاغة ويتصفح مافيه من الخطب التي تتقطع من دونها الاعناق ليعلم مافيهـا من هذا النوع الذي يزعم صاحبنا انه ليس بعربي . . . ومن كلام عمر : ومن اعجب شأنك قولك ولولا سالف عهد وسابق عقد لشفيت غيظي . وهل ترك الدين لأهله ان يشفوا غيظهم بيد او بلسان تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها انتهى .

سبحان الله بعد ان قال « سالف عهد » فما الحاجة الى سابق عقد ؟ ثم

ماهو الفرق بين (استأصل شأفتها) وبين (اقتلع جرثومتهـا) ولا اظنه اعظم من الفرق بين (انتبذ مكاناً) وبين (تنحى جانباً) او كان عمر غير بصير بالعربية …

ومن كلام ام الخير بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلي : (ان الله قد اوضح الحق وأبان الدليل ونوّر السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة)

ومن كلام الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية يوم صفين ايضاً :

« ايها الناس ارعووا وارجعوا انكم اصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيالها فتنة عمياء صماء بكماء لاتسمع لناعقها ولا تسلس لقائدها »

وقال سعيد بن عثمان بن عفان حين دخل على معاويه : ائتمنك ابي واصطنعك حين بلغك باصطناعه اياك المدى الذي لايجارى والغاية التي لاتسامى الخ فقال له معاوية : اما ماذكرت يا ابن اخي من تواتر آلائكم علي وتظاهر نعمائكم لدي فقد كان ذلك ووجب علي المكافاة والمجازاة انتهى .

فانظر ايها القارىء الى المدى لايجارى والغاية التي لاتسامى والى تواتر الآلاء وتظاهر النعماء والى المكافأة والمجازاة هل ترى في هذا الترادف فرقاً عن « ترامت به عن منبته الاقطار وتباينت به عن اهله الاوطان والاوطار » ام اسلوب سعيد بن عثمان ومعاوية بن ابي سفيان غير عربي ؟

والعربي هو اسلوب الاستاذ صاحب مقالة التطور .. الذي هو مع هذا كله ينسى انه قال في هذه المقالة مايأتي : وانتقل من حالة الخشونة والبربرية والجهل الى حالة الظرف والانس والمعرفة . فما هو ياترى ذلك

الفرق العظيم بين البربرية والجهل وبين الظرف والانس وماهو البون بين هذه المترادفات هنا وقوله احزنني وامضني واقض مضجعي على فرض ورودها على الشكل الذي اورده ٠

وكنا نحب ان نطلع على كتابات هذا الفاضل ونقرأ له اكثر من مقالة واحدة (كذا) لننظر هل تمكن من جعل كلامه كله من قبيل كلا ولا .. وهل راعى شروط الاقتصاد الذي يقتضيه هذا الزمان وهل افرغ جميع فصوله في قالب تلغرافات ..

فليعلم ان الاقتصاد في غير موضعه هو تبذير وتفريط وهو اشبه باقتصاد من يهمل استدعاء الطبيب وشراء العلاج حباً في التوفير فتطول علته ويتعطل عمله ويخسر اضعاف ماوفر . وكذلك لغة التلغرافات تبقى الى الابد لغة تلغرافات لا تصلح لتفصيل مجمل ولا للاحاطة بموضوع ولا لشفاء غليل من مبحث. ومن قرأ كتب الغربيين وطالع مقالاتهم اليومية وسمع محاضراتهم المستمرة علم انهم يذهبون مذهب التطويل اكثر منا وان لا وجه للمقايسة بيننا وبينهم في الاطناب والشرح .

وربما يعترض بأن تطويلهم هذا انما هو لتوفية الجزئيات حقها وايضاح الغوامض وتشريح الدقائق العلمية حال كون العرب انما يعيدون المعنى فيقولون امضني وارمضني واقلقني واقض مضجعي. والجواب ماذا نقول في كتب القصص «الرومان» التي تصدر بالالوف وليس فيها شيء من المباحث الفنية نجد الكاتب اذا اراد ان يصف لك اقل منظر او ادنى حادث او اخف حالة نفسية لم يزل يعيد لك المعنى ويصقله ويقربه الى الفهم ويبدي فيه ويعيد حتى تمر الصفحات بعد الصفحات وانت لم تزل في ذلك المعنى نفسه . افهذه لغة التلغرافات .

ولنأت لك بشيء من كلام الجاحظ الذي كان يعرف ان يكتب العربية . . . قال في وصف الكتاب : نعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلادالغربة، الكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً . ثم يقول : فما رأيت بستاناً يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر . ثم يقول : ولا اعلم جارا ابر ولا خليطاً انصف ولا رفيقاً اطوع ولا معلماً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية وعناية ولا اقل املالاً ولا ابراماً ولا ابعد عن مراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا شجرة اطول عمراً ولا اطيب ثمراً ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكاً ولا اوجد في كل ابان من كتاب . ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة . الى ان يقول : ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك ونظرك الى المارة بك الخ الى ان يقول : ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمها ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها من غاب عنا وفتحنا بها كل منغلق علينا الخ

ثم يقول في جواب شرط : علم ان ذلك اتم وابلغ واكمل واجمع . ويقول في محل آخر : فرأى الكتاب ابهى واحسن واكرم وافخم . ويقول في مكان آخر . وربما كان الكتاب هو المحفور اذا كان ذلك تاريخاً لامر جسيم او عهداً لامر عظيم كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب قيروان . ويقول ايضاً : ويضعون الخط في ابعد المواضع من الدثور وامنعها من الدروس .

ويقول : واهل العلم والنظر واصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج

الملل وارباب النحل وورثة الانبياء واعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والملحاء وكتب الملاهي والفكاهات و كتب اصحاب المراء والخصومات الخ .

كان يقدر الجاحظ ان يقول في الكتاب: بستان يحمل في ردن ما رأيت جاراً ابر ولا رفيقاً اطوع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا اقل ابراماً ولا ابعد عن مراء من كتاب . ويختصر كثيراً مما جاء على معنى واحد تقريباً ولكن لم تكن النفس لتشبع من الموضوع شبعها منهُ بعد هذا التكرار والتأكيد .

وقال علي بن الجهم . اذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي فيه من الفوائد والأريحية التي تعتادني وتعتريني من سرور الانتباه وعز التبيين واني اذا استحسنت كتاباً اواستجدته الخ.

ومن كلام بديع الزمان : والموت امر عظم حتى هان وخشن حتى لان الخ ومن اقواله . ما وقع من حرب وحدث من خطب وكان من يابس ورطب الخ .

ومن كلام الخوارزمي ويموت سيد من آل بيت المصطفى وشريف من عترة المجتبى فلا تشهد جنازته ولاتجصص مقبرته . ويموت مسخرة لهم (أي لبني العباس) اولاعب اوزامر اوضارب الخ .

واول مقدمه ابن خلدون .

الحمدلله الذي له العزة والجبروت ، وبيده الملك والملكوت ، وله الاسماء الحسنى والنعوت ، القادر فلا يعزب عنه شيء في السموات والارض ولايفوت ، العالم فلايخفى عنه ما تظهره النجوى اويخفيه السكوت ، خلقنا من الارض نسماً ، واستعمرنا فيها اجيالاً واُمماً ، ويسر

لنافيها ارزاقاً وقسماً تكتنفنا الارحام والبيوت ، ويكفلنا الرزق والقوت ،
وتتداول آجالنا الايام والوقوت ، ويجري علينا ما خط علينا كتابها
الموقوت ، وهو الحي الذي لايموت الخ .

إن صح رأي صاحبنا فما معنى يعزب ويفوت واجيالاً وامماً وارزاقاً
وقسماً ورزق وقوت وايام ووقوت . افليس كل زوج منها واحداً ؟

ومن ترسل الصابئ في التهنئة بمولود : فاخذ ذلك عندي ما خذ
الاغتباط ونزل عندي اعلى منازل الابتهاج وسألت الله ان يختصه بالبقاء
الطويل والعمر المديد الى ان يقول : ويحرس هذه السعادة من خلل
يعترض اتصالها ، اوفترةٍ تخترم زمانها ، اونائبة تشوبها او تنغصها ، اورزيةٍ
تثلمها اوتنقصها الى انتهاء الامد الابعد والعمر الاطول الى قوله : الايام
التي استشعرت نوراً من سنائه ، وآنست جمالاً من بهائه وثابت مصالحها
ببركته وتوافت خيراتها بيمنه واعتقدت ان السعادات طالعة علي بمطلعهِ
اسبابها ناجمه الي بمنجمه الخ .

وفي الموضوع نفسه لعلي بن حمزة بن طلحه : فاستفزتني غبطه
استحوذت على جوامع لبي وتملكتني بهجة توت في مرابع قلبي ، وطفقت
مبتهلاً وتضرعت متوسلاً ان يجمع له بين العمر المديد والجد السعيد
وان يجعل للحياة اياديه لدى سيدي الامير متضاعفة الاعداد مترادفة
الامداد الخ الى ان يقول :

وان يقيه من كيد عائد اذا عند ويحميه من شر حاسد اذا حسد
وان يؤتيه سعادتي العاجلة والعقبى ويحظيه بسعادتي الآخرة والاولى الخ .

وماذا عسى الانسان ان يستشهد مما ليس له نهاية . وارجو الاستاذ

المنتقد الاديب اخذني على الاطناب لانه ضروري لايجاد صورة تامة في الذهن، ولاقناع من كان مكتفياً برأيه، وان يتغمد « قلة بضاعتي ونزارة مادتي الفكرية » بوفرة بضاعته وغزارة مادته . وفوق كل ذي علم عليم .



ـ تطور اللغة في الفاظها واساليبهـا ـ

— ٢ —

كنت نشرتُ في احد اعداد الاربعاء السابقة من جريدة السياسة الغراء في صفحة الأدب منها مقالاً عنوانه «تطور اللغة في الفاظها واساليبها» تكلمت في آخره عن فرق من فروق كثيرة بين المذهبين القديم والجديد في الكتابة ، وهو ان اصحاب المذهب القديم اولعوا بالمترادفات يكيلونها جزافاً على غير حاجة اليها ولا فائدة منها . وقدمت على ذلك مثلاً من رسالة لكاتب كبير لم اذكر اسمه ، من ذلك قولهُ : «ايها الاخوان ان الصارخة القومية والنعرة الجنسية قد بدأت مع الأقوام ونشأت مع الامم مذ الكيان ومنذ الاجتماع البشري وتساكن الانسان مع الانسان الخ » فالصارخة هي النعرة والقومية هي الجنسية وبدأت هي نشأت والأقوام هي الأمم ومذ الكيان هي منذ الاجتماع البشري ومنذ الاجتماع البشري هي منذ تساكن الانسان مع الانسان .

فأنت ترى انهُ مامن كلمة الا ومرادفتها معها على غير حاجة اليها ولا فائدة منها . ثم قلت ان هذا النوع من الكتابة غير طبيعي ، او غير عربي ، او على الأقل لا يستمرئهُ ذوق هذا العصر . فلما وصلت جريدة السياسة الغراء الى ذلك الكاتب الكبير الذي نعرف فضله وان كنا ننكر عليه مذهبه هذا ، غضب جداً ، لا لأن انتقادي جاء في غير محله ، بدليل انهُ لم يتصدَّ احد للرد عليَّ منذ نشرت رسالتي الى ان تفضل هو بالرد عليهـا ،

الرد الاول على الامير نشر في جريدة السياسـة الغراء في العدد ٣٣٢ بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٣

والفترة ليست قصيرة ، وبدليل ان جريدة السياسة الغراء ، ومكانها في الصحافة الراقية مكانها ، قد شرفتني فجعلت مقالي في صدر صفحة الأدب وهو المكان المعد لرسائل الاستاذ طه حسين ، ولم يكن ذلك منها الا لأنها رضيت عن رسالتي ، ورأت ان ماشرعت في الكلام عنهُ من الفروق بين المذهبين القديم والجديد في الكتابة ، مما تمسُّ اليه الحاجة تعزيزاً للمذهب الجديد الذي تدعو هي اليه .

نعم ان الامير لم يغضب لان انتقادي المذهب القديم جاء مبايناً لوجه الصواب ، وانما غضب لاني استشهدت باقواله ، ولم استشهد بها الا لاني اخترت ان استشهد باقوال كاتب كبير يوثق به «أشفقت» ان يقلده غيره في اسلوبه هذا بلا بحث ولا انتقاد ..

نعم لم يغضب لاني انتقدت وانما غضب لاني استشهدت باقواله ، فلو تركته ولم اترك احداً من المتقدمين والمتأخرين الا انتقدته واستشهدت باقواله ، لكان الخطب عنده هيناً ، ولكان انتقادي حينئذٍ في محله ، ولكفى نفســه مؤونة هذا الرد الطويل العريض ، الذي ارجو ان لايتعجل في الغضب علي اذا قلت ان هذا الرد من اوله الى آخره جاء دليلاً جديداً على ان الامير من اصحاب المذهب القديم ، وانه لايزال مولعاً بالمترادفات على غير حاجة اليها ولافائدة منها .

واليك شيئاً من كثير مما جاء في رده قال : كل دور من ادوار اللغة العربية سواء دور الجاهليين او المخضرمين او العهد الاموي او العصر العباسي او القرون التي بعده » فالدور والعهد والعصر والقرون مترادفات ، اجمل بقوله كل دور من ادوار اللغة العربية ثم فصل بقوله سواء دور كذا اوعهد كذا اوعصر كذا ثم اجمل بقوله والقرون التي بعده ، لالانه يريد

الاجمال فالتفصيل فالاجمال، ولكن ليأتي بمترادفاته وقد كان التفصيل على قدر ماعنده من تلك المترادفات. وقال: «فللاندلس منزع ولليمن مذهب ولمصر لهجة وللشام اسلوب وللعراق نمط» فالمنزع والمذهب واللهجة والاسلوب والنمط مترادفات، ولو بقيت لديه بقية من المترادفات ولو من الألفاظ الغريبة المهجورة لقال ولفلسطين كذا وللسودان كذا ولأهل المدر كذا ولأهل الوبر كذا. وقال «في كل لغة وكل منطق». وقال «اذا اراد الكاتب ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة». وقال «ان اللغة الفرنساوية التي هي افصح لغات اوربا لها اسلوب خاص ونمط قائم بها». وقال« لاثبات فضله واظهارطوله». الى غير ذلك مما لو شئت تتبعه لجاء ردي مثل رده طويلا عريضاً بل اطول واعرض..

ماقول الأمير اعزه الله، لو شئنا ان نترجم عباراته هذه الى لغة اجنبية، ولم يكن فيها من المترادفات مافي اللغة العربية، افلا نضطر الى تكرار اللفظ بعينهِ في غير مواطن تكراره؟ فنقع في عيب حاول الامير أن يتجنبه بذكر مرادف اللفظ، وإن لم يكن فرق في الحقيقة بين تكرار اللفظ بعينهِ وتكراره بمرادفه، ثم ما الفائدة من تكرار اللفظ بلفظه او بمرادفهِ؟ وليس رده علي كلاما عن سلطان ولاهو في فتح اذا جاز الاتيان بالمترادفات تكال كيلًا في الكلام عن سلطان اوفتح على رأي الامير. اما كان الاولى بادبه وعلمه أن يلزم نفسه قاعدة «خير الكلام ما قل ودل»؟ ولكنه يظهر انه لم يراع هذه القاعدة لا في منشوره الذي «طبعت منه الوف والوف من النسخ ليوزع على ملايين وملايين من الامة العربية في المدر والوبر» او «الامة العربية جمعاء في آفاق الارض

ومناكبها ومشارق الشمس ومغاربها » او « الامة العربية قاصيها ودانيها وحاضرها وباديها وخاصيها وعاميها » نعم لم يراع هذه القاعدة لا في منشوره ذاك ولا في رده هذا ..

إذا كان لكل مقام مقال فما باله اعزه الله ، يجعل المقال الواحد لكل مقام؟.. ولست اظن ان كاتباً كبيراً مثله يتعذر عليه ان يتنكب هذا الاسلوب من الكتابة لولا انه الفهُ واتخذه مذهباً في كل ما يكتب سواء أكان منشوراً تقرأه الامة العربية جمعاء في المدر والوبر وفي آفاق الارض ومناكبها الخ ام رداً ينشر في صفحة الادب ولا يقرأه الا من يهمه امره وقليل ماهم . فصار إذا امسك القلم انهالت عليه المترادفات كأنه يتناولها عن حبل ذراعه فلا يتركها حتى يجيء على آخرها . وليس هذا اسلوب الامير ، ولكنه اسلوب قديم اكل الدهر عليه وشرب ، ولعله يتصل بعصر الكهان، وليس الامير فيه الا مقلداً، واني اعرف كثيرين من ادباء عصر الامير وخريجي مدرسته واستاذه ينحون نحوه في الاكثار من المترادفات يكيلونها كيلاً على غير حاجة اليها ولا فائدة منها .. ولولا خوفي ان يغضبوا كما غضب الامير لاستشهدت في هذا المقام باقوالهم كما استشهدت في رسالتي تلك بأقواله ، وما ادراني انهم هم ايضاً غضبوا عليّ ولو لم استشهد بأقوالهم، لأنهم قد يكونون حسبوا ان تعرضي لأحد زعماء مذهبهم تعريض بهم . على اني لم اكتب ما كتبت لأغضب فلاناً وفلاناً، او كما قال الأمير اعزه الله « لم يكن مقصدي الانتقاد لأجل الانتقاد » ولكن لاقرر مذهباً جديداً فاذا لم يقبلوه فهم وشأنهم . لهم مذهبهم ولي مذهبي .

اعتمد الأمير في رده عليّ على أصول اقتبسها من كلام صبح الأعشى وعلى شواهد اقتبسها من أقوال من يسميهم بلغاء وفصحاء ٠٠ ويظهر انه أجهد نفسه ونقب في تضاعيف الكتب كثيراً . اما الاصول فايسمح لي الأمير ان أقول انها ليست مما يصح الاستشهاد به في مانحن فيه ، فهي من واد ومسألتنا من واد . ولولا خوفي ان أمل القارئ الكريم ، وأن اشغل من صفحة الأدب على حسابي مالايجوزلي ان اشغله ، حللت تلك الأقوال واظهرت انها لاتعني مايريد الأمير ان تعنيه لأنها لم ترد على ان للايجاز مقاماً وللاطناب مقاماً . وقد سبقت فقلت في رسالتي تلك ان للايجاز والأطناب مواطن وشرائط نص عليها البيانيون امسكت عن ذكرها تأدباً مع الأمير ، ولو فرضنا انها تعني مايريد فارجو ان أنبه من الأمير غير غافل اننا نتكلم عن مذهب جديد لا مذهب قديم .

انتقدت على الامير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها فاحالني على المواطن التي يكرر فيها الكلام بلفظه او بمرادفه عن حاجة اليه وفائدة منه . هذا ليس موضع الانتقاد ياسيدي . التكرار لايكون الا لنكتة كزيادة التوكيد نحو « كلاسوف تعلمون ثم كلاسوف تعلمون » ونحو « ان بني هاشم بن المغيرة استأذنوني ان ينكحوا ابنتهم علياً فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن » وزيادة التوكيد هذه لايقتضيها الا المعاني التي يراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها . فهل قولك « ان الصارخة القومية والنعرة الجنسية نشأت مع الامم وبدأت مع الأقوام مذ الكيان ومنذ الاجتماع البشري وتساكن الانسان مع الانسان » وقولك « في كل لغة وكل منطق » وقولك اذا اراد الكاتب ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة » وقولك للغة الفرنساوية

أساوب خاص ونمط قائم بها» هل كل ذلك من المعاني التي يراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها ؟

انتقدت على الأمير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها، فقال ان منشوري للعامة، ان العامة ياسيدي الأمير لاتفهم منشورك اكثرت فيه من المترادفات ام اقللت . اذا اردت ان تخاطب الجمهور فلا اخالك تنكر عليّ انه يجب ان تخاطبهُ بلغة مفهومة تتجنب فيها مثل قولك « الشقص الاوفر » الا اذا كان قصدك ان تنومه لا ان تفهمهِ . اذا اردت ان تكثر فليس الاطناب اكثاراً، كما انه ليس الايجاز اختصاراً، قد توجز مع الاكثار، وقد تطنب مع الاختصار، فاذا اردت ان تكثر فلا دخل للاطناب والايجاز في اكثارك . وانما الاكثار ان تضاعف معانيك ماشئت وشاء المقام، لا ان تضاعف الفاظك على غير حاجة اليها ولا فائدة فيها .

انتقدت على الامير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها فأحالني على صبح الاعشى في كلامه على التفاضل بين المساواة والايجاز والاطناب . ليسمح لي الامير ان اتجرأ على فضله فأقول لاتفاضل بينها لأن كلاًّ منها غير الآخر ولأن لكل منها محلاً لايجوز ان يحل فيه غيره . واما الكلام الوجيز الذي لايؤمن وقوع الاشكال فيه فهذا من الايجاز المخل الذي اشار اليه البيانيون، ولايجوز لعربي ان يعتمده لامع العامة ولا مع الخاصة . . .

اما الشواهد التي جاء بها على ذمة راويها دليلًا على ان اسلوبه عربي فلست اظن انه يجهل أني لااعجز عن ان اورد له اضعاف اضعافها لاترادف فيها ولا تكرار من كلام من يوثق بعربيته .

كان الاولى بالأمير ان يقول انه قد ورد في بعض اقوال العرب المنقولة الينا على ذمة راويها شيء من الترادف لاان هذا اسلوب العرب والا فكان يجب على رأيه اذا قيل رأس الحكمة مخافة الله ، ان يقال ودليل العقل تقوى الخالق ، وعنوان الفضل خشية الباري .

أعيذ اللغة العربية من مثل هذا



ولكل دولة رجال ...

كنا نظن اننـا بعد الاتيان بنصوص علماء الادب وشواهد فحول البلاغة مثل الجاحظ والبديع الهمذاني وابن خلدون وأمثالهم نأمن المناكرة والمكابرة ويقع التسليم بأن المترادف ـ هذا إذا كان ثمة مترادف حقيقي ـ مألوف في لغة القوم قد يأتي في الاحايين لتمكين المعنى في نفس السامع، وان للاطناب مقامات وللايجاز مقامات وان وضع الواحد منهما موضع الاخر مخل بالفصاحة التي هي المطابقة لمقتضى الحال الى غير ذلك . فلم نستفد شيئا . واذا بصاحبنا لا يعييه شيء . ولا تقف في وجهه حجة ملزمة بل كل شيء له عنده جواب مهما كان ذلك الجواب كبيراً عليه . واذا وضعته بازاء اولئك الائمة الذين هم قدوة الناس في البيان قال لك ما محصله : ومن هم هؤلاء ومن هو الجاحظ ومن هو بديع الزمان لا بل من هو علي ومن هو عمر ومن هو زياد ابن ابيه ومن هو الحجاج؟ هؤلاء لهم مذهبهم في القول وأنا لي مذهبي .. صاحبنا أصبح صاحب مذهب، ولا غرو فلكل زمان أبطال ولكل دولة رجال ..

الرد الثاني للامير نشر في جريدة السياسة الغراء في العدد ٣٥٩ بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣

يقع واحد في الخطأ ويقول ما لم يقله الناس فاذا ردوه الى القواعد واستظهروا عليه بالشواهد أجاب : هذا مذهب أولئك ولكنه ليس مذهبي ..

لاتظن انني مبالغ في شيء بل أدين صاحبنا من نفس كلامه . قال لم يكن مقصدي الانتقاد لاجل الانتقاد ولكن لأقرر مذهباً جديداً (كذا) اذا لم يقبلوه فهم وشأنهم لهم مذهبهم ولي مذهبي » .

وقال في موضع اخر : «ولولا خوفي ان أمل القاريء الكريم وأن أشغل من صفحة الادب على حسابي ما لايجوز لي ان اشغله لحللت تلك الاقوال واظهرت انها لا تعني ما يريد الامير ان تعنيه لانها لم ترد على ان للايجاز مقاما وللاطناب مقاما » الى ان يقول « ولوفرضنا انها تعني مايريد فارجو ان انبه من الامير غير غافل الى اننا نتكلم عن مذهب جديد لامذهب قديم »

لا، بل والله كنت غافلاً عن انك صاحب مذهب .. ولم يخطر ببالي ان اسلوب الجاحظ صار قديماً بالياً وان مثلي ومثلك صرنا مجددين في اللغة. لاتحمل كلامي هذا محمل التهكم فليس بتهكم ان يقال لك لست بالجاحظ ولا علي بن ابي طالب واذا كان لهؤلاء مذهب فلست أنت بالذي يقدر ان يأتي بنقيضه .. فاربع على ظلعك ولاتركب في غير سرجك . فلسنا واياك من تلك الطبقة . اما قوله انه لوشاء لحلل تلك الاقوال واظهر انها لا تعني ما اريده الخ فليت شعري ماذا تعني تلك الاقوال ? وقوله « فهي في واد ومسألتنا في واد » فأي واد نحن فيه غير هذا الوادي ? انكر جواز استعمال المترادف مطلقا فاوردنا له نقطة من بحر من كلام الائمة الذي فيه

ما فيه من المترادف • زعم ان للاطناب مواطن غير المواطن التي اطلنا فيها فاوردنا له النصوص والشواهد التى هي مثل فلق الصبح على كون الاطناب مألوفاً في المناشير العامة — التي هي في موضوع منشورنا الى الامة العربية — فكيف تكون تلك الشواهد في واد ومسألتنا في واد؟ ورحم الله القائل •

وليس يصح في الافهام شيء

اذا احتاج النهار الى دليل

وقال : « اعتمد الامير في رده على اصول اقتبسها من كلام صبح الاعشى وعلى شواهد اقتبسها من اقوال من يسميهم بلغاء وفصحاء »

انا اعتمدت على اصول البيانيين التى وردت في صبح الاعشى وغير صبح الاعشى لأن الاصول اصول اينما وجدت • فهل يريد ان نأتي له بنصوص أخرى من غير صبح الاعشى على ان للاطناب مقاما وللايجاز مقاما وان التأكيد غير منكر في المناشير العامة، لابل الايجاز فيما يخاطب به الجمهور مخالف لشروط الكتابة. انا استشهدت في ردي السابق بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وابي عبيدة وزياد ابن ابيه والحجاج ابن يوسف وعبدالملك بن مروان وسعيد بن عثمان بن عفان والزرقاء الهمدانيه وام الخير البارقية ثم الجاحظ وعلي بن الجهم وبديع الزمان والخوارزمي وابن خلدون والصابي، وغيرهم وهذا ماحضرني قبسة عجلان • افهؤلاء الذين يقول صاحبنا « من يسميهم بلغاء وفصحاء » اي انني انا اسميهم بلغاء وفصحاء والحقيقة انهم ليسوا كذلك.

نشدت الله كل قارئ منصف أليس مراد الاديب السكاكيني بقوله «من يسميهم بلغاء وفصحاء» انني انا وحدي اسمي هؤلاء الرجال المار ذكرهم بلغاء وفصحاء وانه هو لا يسميهم كذلك اذ لا يجد لهم بلاغة ولا فصاحة؟ لاجرم ان هذا هو مراده بهذه الجملة وكان الاولى ان امسك القلم عن مناظرته من بعد هذا ولكنني أكمل هذا الفصل ليزداد القراء بصيرة بالامر وبعد ذلك اترك هذا العناء في مناظرة من لايعجبه الارايه . وقال « فاحالني على صبح الاعشى في كلامه على التفاضل بين المساواة والايجاز والاطناب . ليسمح لي الامير ان اتجرأ على فضله فأقول لاتفاضل بينها لان كلا منها غير الاخر ولان لكل محلا لايجوز ان يحل فيه غيره »

والله قد اعيتني الحيلة . ما اصنع لاقنع مناظري بالعدول عن هذا المراء الذي لايليق بأديب مثله . أعيد ماقلته بحرفه بعد ايراد النصوص (اذن ليست هناك مسئلة تطويل ممل وايجاز مخل بل مسئله الايجاز في محل الايجاز والاطناب في محل الاطناب فاذا خوطب الحكماء والعظماء والملوك بالكلام المشبع المبسوط المؤكد كان ذلك خللا باصول الكتابة ومنافياً للذوق السليم . كما انه اذا خوطب الجماهير الذين لاتجد فيهم خاصيا الا كان بجانبه الف عامي بدقائق من البلاغة واشارات وكنايات تقتضي اعمال الفكر ولا يدرك الجمهور مغزاها كان ذلك مخالفاً لاداب الكتابة وفات الغرض المقصود من الخطاب . نعم كان العرب يميلون الى الايجاز ولكن كانوا يميلون اكثر الى وضع الشيء في محله)

افرايت كيف يذكرني مناظري بنفس الشيء الذي كنت قلته ليوهم الناس انني مكابر فيه . ثم قال وهو من اغرب ماجاء في رده .

« اما الشواهد التي جاء بها الامير على ذمة راويها دليلاً على ان اساويه عربي فاسد اظن انه يجهل اني لا اعجز عن ان اورد له اضعاف اضعافها لا ترادف بها ولا تكرار من كلام من يوثق بعربيته »

كلا لا تعجز عن ايراد شواهد على الكلام الموجز الذي ليس فيه مترادف ولا تأكيد وانا مع عجزي وتسميتي تلك الطبقة بلغاء وفصحاء واعترافي بأنني لا اصلح ان اكون من تلاميذهم لا اعجز ايضاً عن الاتيان باضعاف الاضعاف التي وعدت بها من الشواهد ايها الاستاذ . ولكن لم افهم معنى كلامك هذا . هل انكرت انا فضل الايجاز وقلت لا بهاء لكلام موجز ولا مكان له عند العرب حتى تأتيني بتلك الشواهد التي تبطل دعواي ؟ وهل ورد في كلامي شيء يدل على كون المترادف هو اصلا من اصول البلاغة لا غنى عنه جاء في محله او في غير محله ? متى واين ادعيت ذلك ؟. تحرير القضية انك انت تنكر المترادف مطلقا . وانا اقول بل له مواضع . وقد جاء في كلام اهل اللسان المقتدى بهم في البيان . ولا ينشأ من ذلك كما يفهم بالبديهة انني انكر بدائع الايجاز او اوجب الاطناب في كل مكان حتى تورد لي شواهد على ما لم تسبق لي دعوى بانكاره وتتكثر هذا التكثر بدون سائق له .

اما قوله (على ذمة راويها) فتلك مسألة أخرى . يظهر أنه لا يعجزه شيء . وقد اخذ اللغة بالجسارة والقوة . فاذا استشهدت له بكلام اساطين العربية قال لك : انت تراهم بلغاء — اما انا فلا . او : مذهبي غير مذهبهم واذا خاف ان ينكر عليه القراء كون الرسول لم يصب بشاكلة البلاغة عندما قال عن علي « اكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه » او كون ابي بكر

تكلم بعربي فصيح عندما قال « لم يدع احداً من اصحابه الا ابانه بفضيلة وخصه بمزية وافرده بحالة » او تذكر ان علياً صاحب نهج البلاغة لم يكن محتاجاً أدباء آخر الزمان ان يردوه الى العربية الصحيحة عندما قال (لولا سالف عهد وسابق عقد) وعند قوله (استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها) وأن معاوية ايضاً كان لا بأس به في العربية وهو القائل (تواتر آلائكم علي وتظاهر نعمائكم لدي) وان الجاحظ كان اكتب مني ومن الاستاذ السكاكيني وامثالنا وهو الذي يقول (امنعها من الدروس وابعدها من الدثور) عاد فقال لك : وما يدريك فلعلهم لم يقولوا ذلك وحاول جرح الرواية ولو كانت القضية قضية جملة اوجملتين او مائة او مائتين من هذا القبيل لكان الامر سهلاً ولكن هناك مالا يحصى ولا يعد (لا يحصى ولا يعد) هو ايضاً من كلام العرب وهو من باب التأكيد واشباع المعنى لأن يعد هو نفس يحصى ، فماذا عسى صاحبنا يجرح من الروايات وماذا عساه يتحمل من الأجوبة على اقوال لم يختلف في روايتها اثنان .

ثم قال (كان يجب على رأيه اذا قيل رأس الحكمة مخافة الله ان يقال ودليل العقل تقوى الخالق وعنوان الفضل خشية الباري) اذا كنت استشهدت بأقوال العلماء عن مواطن الايجاز ومواطن الاطناب واوردت شواهد من الخطب والكتابات التي وقع فيها مترادف لنكتة مقصودة او لمعنى قريب من معنى او لتمكين صورة في ذهن أفتكون نتيجة ذلك انني اوجب ان لا يقال رأس الحكمة مخافة الله حتى يقال ودليل العقل تقوى الخالق؟ او مثلي انا ينكر جوامع الكلم وينكر مزايا الايجاز وهل هذا هو مبلغك من الانصاف ايها الأديب.

ثم قال (اعيذ اللغة العربية من مثل هذا) اي يعيذ العربية من مثل كلام الجاحظ ومن سبق ذكرهم . . ويظهر انه احس بكونه لا مخرج له من تبعة قوله ان هذا الاسلوب غير عربي فقال (ثم مابالك اهتم كثيراً بقولي ان اسلوبه غير عربي ولم يهتم بقولي انه غير طبيعي او على الأقل لايستمرئه ذوق هذا العصر .) اي انه قد يكون عربياً ولكنه غير طبيعي . فكأن العرب ينقصهم في دولة فصاحتهم هذه صفاء القرائح وتجويد المنطق فجاؤا بما يخالف الطبيعة . . . وجاء هو يبين لهم ان اسلوبهم هذا غير طبيعي فليطبقوا اسلوبهم على الطبيعة . ثم نزل عن ذلك العموم الى دائرة اضيق فقال (لايستمرئه ذوق هذا العصر) فجعل نفسه ممثلاً لذوق العصر . وظن انه بقوله هذا مذهب جديد انقطعت الحجة وارتفع النزاع . ونسي ان الطبيعة البشرية في هذا العصر وفي كل عصر واحدة تميل الى الايجاز في محل الايجاز وتهتف بالمترادف في محل التأكيد . وان الذي قرره من ذلك علماء الأدب هو المنطق المعقول الملازم للبشرية الذي ليس فيه قديم وجديد . لأن العقل ليس فيه قديم وجديد . وان ذوق هذا العصر ايضاً وذوق أدباء اوربا هو الايجاز في محله والاطناب في محله وان وضع الواحد موضع الآخر مخالف للذوق . واما انه لو اراد الانسان ترجمة المترادف الى لغة اجنبية للزم تكرار اللفظ بعينه فليس بوارد لأن كل لغة لها روح . ولا يقال ان هذا الفرنساوي ليس بفصيح لاننا عندما ترجمناه الى العربي بنصه لم يكن له طعم ولا ان هذا العربي غير بليغ أفلا ترى اننا عندما جعلناه فرنسوياً ظهرت فيه كلمات مكررة فمن البديهيات ان معيار فصاحة ة لايكون الا في نفس اللغة . خذ فكتور هوغو وترجمه الى العربية

فإذا تجد فيه مما يستحق كل هذا الاعجاب ؟ مع انه في لغته هو السنام الأعلى .

ويقول (ان الأمير لم يغضب لأن انتقادي جاء مبايناً لوجه الصواب وانما غضب لانني استشهدت بأقواله) ثم مامضى سطران حتى عاد فقال (نعم لم يغضب لأنني انتقدت وانما غضب لأنني استشهدت بأقواله) بالله عليك ايها القارئ اللبيب هل تجد في هذه الجملة الثانية معنى جديداً لم يكن في الاولى ؟ فلماذا اجاز هذا التكرار أستاذ المذهب الجديد ... أم يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ؟ ثم اطال في تبيين سبب غضبي وانحصاره في انتقاده لكلامي يريد انني لولا ذلك لكنت استحسنت جرأته على ارباب اللغة وما علمت من اين جاءه نبأ هذا السبب اذ ليس في جوابي مايدل على شيء مما قال فكيف اطلع على سريرتي من القدس الى لوزان ابمناجاة الارواح ام بقراءة الأفكار فعلم انني كنت موافقه على ماقاله لولا كونه تعرض لي . بل والله ماغضبت لنفسي مثلما غضبت لأساطين اللغة وسلاطين البلاغة ان يقوم اليوم واحد مثلي او اعجز مني فيقول ان بلاغتهم صارت قديمة بالية وانه هو سيغنينا عنهم باسلوب جديد .

ومن جملة تكراراته التي يعيبها على الناس ويقع فيها قوله في رده الأخير (ليس الاطناب اكثاراً كما انه ليس الايجاز اختصاراً قد توجز مع الاكثار وقد تطنب مع الاختصار فلا دخل للاطناب والايجاز في اكثارك وانما الاكثار أن تضاعف معانيك وتتبسط فيها ماشئت وشاء المقام) مابالك تزري على الناس تكرار الجمل للتأكيد ثم تقول (ليس الاطناب اكثاراً

كما انه ليس الايجاز اختصاراً فعلى مذهبك قد انتهى هذا المعنى هنا وصار من الحشو ان تقول فيما بعده (قد توجز مع الاكثار وقد تطنب مع الاختصار) فأي معنى جديد اتيت به في هذه الجملة الثانية وأي تبسط تبسطته في المعاني هنا ؟ فأنت الذي بعد هذا ينتقد قولي (المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة) ويهزأ بعبارتي (ان اللغة الفرنساوية التي هي افصح لغات اوروبا لها اسلوب خاص ونمط قائم بها) ثم يعيب قولي (كل دور من ادوار اللغة العربية سواء دور الجاهليين او المخضرمين او العهد الأموي او العصر العباسي او القرون التي بعده) ثم يقول (فالدور والعهد والعصر والقرون مترادفات اجمل بقوله كل دور من ادوار اللغة ثم فصل بقوله سواء دور كذا أو عهد كذا أو عصر كذا ثم عاد فأجمل بقوله والقرون التي بعده لا لأنه يريد الاجمال ولكن ليأتي بمترادفاته) .

ثم اجملت بقولي (كل دور من ادوار اللغة العربية) ثم لزم أن افصل هذه الادوار واعينها ليعرف اي الادوار التي كانت لها ديباجة تعرف بها ، فقلت (دور الجاهليين او المخضرمين او العهد الاموي او العصر العباسي) فما فهمت وجه الاعتراض هنا اترى عنده دور الجاهليين هو نفس دور المخضرمين والعهد الأموي هو العصر العباسي فلا يكون ازداد المعنى بهذا التفصيل ام ماذا ؟ كما اني لم افهم كيف اني بقولي (والقرون التي بعده) لم اقصد الا الاتيان بمترادفاتي ، اراه ينكر فائدة هذه جملة ويرى القرون التي بعد العصر العباسي وهي نحو ستمائة سنة هي نفس العصر العباسي فلذلك يرى ان ليس من معنى جديد في ذكرها ، أعترف انني عجزت هنا عن حل معمى انتقاده ، وانا استنجد القراء الكرام ان يفيدوني بحل

التكرار بدون فائدة في عباراتي هذه. كما اني استنهض هممهم ان يشرحوا لي مازاد الاستاذ من المعاني في قوله « قد توجز مع الاكثار وقد تطنب مع الاختصار » بعد قوله (ليس الاطناب اكثاراً كما انه ليس الايجاز اختصاراً)

ثم زعم اني قلت « فللأندلس منزع ولليمن مذهب ولمصر لهجة وللشام اسلوب وللعراق نمط » .

والحال ان عبارتي هي هذه « فللأندلس منزع يعرفه من ألف مطالعة كتب ذلك القطر ، ولليمن مذهب لايشبه مذهب المنشئين في العربية من فارس في كثير من الامور ، ولمصر لهجة خاصة يعرف الناقد البصير منها نسبة مؤلف الكتاب ولو لم يكن اسمه عليه كما ترى ذلك من الف ليلة وليلة . وللشام اسلوب يختلف شيئاً عن اسلوب اهل مصر في الكتابة وكثيراً في الحديث ، كما ان للعراق نمطاً غير نمط اهل الشام ومصر وهلم جرا » .

أنا اعرض هذه الجمل على كل من شم رائحة العربية وأرجو منه ان يخبرني اين التكرار الممل والحشو الزائد هنا ؟ هل ياترى اذا قلنا « فللاقطار العربية منازع مختلفة في الكتابة » نكون وفينا كل المعنى الذي يستفاد من هذا التفصيل ولا يكون ذلك ايجازاً مخلاً بما نريد بيانه ؟

فان كان مثل هذا حشواً فماذا يكون قوله هو « وانتقل من حالة الخشونة والبربرية والجهل الى حالة الظرف والانس والمعرفة . ام تكون البربرية بلا جهل ، ويكون الانس بدون معرفة ؟ اوهناك فروق ودقائق لاتوجد في المترادفات التي وقعت في كلامنا وما هو المعنى الجديد المتبسط

في قوله (على غير حاجة اليها ولا فائدة منها) اذ ما الفائدة مما لا حاجة اليه؟ لقد اعجبته جداً كلمته هـذه حتى كررها مراراً في رده الأخير .

قال في العمود الأول من رده (يكيلونها كيلاً على غير حاجة اليها ولا فائدة منها) ثم بعد اسطر معدودات من موضعها الأول قال (ما من كلمة الا ومرادفتها معها على غير حاجة اليها ولا فائدة منها) ثم بعد اسطر من هذا المكان عاد فكررها قائلاً « دليلاً جديداً على ان الأمـير من اصحاب المذهب القديم وانه لا يزال مولعاً بالمترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها » ثم جاء في العمود الثاني من مقالته فقال اعرف كثيرين من أدباء عصر الأمير وخريجي مدرسته واستاذه ينحون نحوه في الاكثار من المترادفات يكيلونها جزافاً من غير حاجة اليها ولا فائدة منها » ثم قال في العمود الثالث من مقالته «انتقدت على الأمير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليها ولا فائدة منها » ثم قال بعد ذلك بقليل في نفس العمود « انتقدت على الأمير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليهـا ولا فائدة منها فقال منشورى للعـامة » ثم قال بعد ذلك بنحو عشرة اسطر (لا ان تضاعف الفاظك على غير حاجة اليها ولا فائدة منها) ثم قال بعد هذه الجملة بسطرين لاغير أي حين لم يحن له أن يشتاق الى هـذه الجمـلة (انتقدت على الأمير اكثاره من المترادفات على غير حاجة اليهـا ولا فائدة منها فأحالني على صبح الأعشى ..

وبالاختصار فانه اورد جملة هي في الحقيقة (لا حاجة اليها ولا فائدة منها) ثماني مرات في مقالة هي ثلاثة اعمدة . ولم يكثر عليه ان يرميني بالمترادف لغير فائدة وان ينكر أسلوب العرب الأولين اهل اللسان وأن

ينصب نفسه اماماً يجب على الناس ان يصلوا خلفه . وبهذا القدر كفاية .

***

بعد تحرير هذه المقالة اطلعت على صحيفة الأدب من (السياسة) الغراء المؤرخة في ٢١ نوفمبر فوجدت فيها مقالتين ممتعتين احداها بامضاء (صدقي) والثانية بامضاء (علي ادهم) كل منهما ممن يتحدى الاسلوب الغربي ويحاكي مذهب كتاب الافرنجه على شرط المحافظة على ديباجة العربية وافراغ المعاني الجديدة والمنازع الاوربية في القالب المتين مما هو نكتة المحيا والغاية القصوى .

فقد تصفحت هاتين المقالتين فوجدت في أولاها ما يأتي في ذكر رسالة الغفران : « تطير نفسه شعاعا الى نعيمها وملاذها » .

« يعدد ألوان النعيم ويصف افانين الملاذ بأقصى قصارى مبالغاته » .

« ليست رسما مسطورا أو قصوراً جامدة لا حراك بها » .

« لا مندوحة اذن عن ان المخيلة تحدس وتفترض » .

فعلى مذهب الاستاذ السكاكيني "شيخ الطريقة الجديدة" لا وجه لذكر ملاذها بعد نعيمها . ولا محل لافانين الملاذ بعد الوان النعيم . وأي معنى لقوله لا حراك بها بعد قوله انها جامدة . وما هي الضرورة لكلمة تفترض بعد كلمة تحدس . ولا فائدة للتأكيد ولا حاجة للتأثير على السامع ومن قارن بين الاعتراضات التي اعترضها علي وبين هذه الجمل علم ان اعتراضاته واقعة على هذه ايضاً وعلى العربية من اصلها .

وجاء في المقالة الثانية ما يأتي في وصف الكاتب الروسي الروائي ايفان ترجنيف .

«زيادة اتساع الاحساس وترامي حدود المعرفة والاحاطة» ـ «ظاهرة ذات شأن كبير وحادثة بعيدة التأثير» — «وهو من كبار مفسري النفسية الروسية ومترجمي أسرار القلب السلافي» — سيقول لك السكاكيني ان لا محل لترامي الحدود بعد الاتساع ولا لزوم لجملة بعيدة التأثير بعد ذات شأن كبير وسينكر عليك ترجمة أسرار القلب بعد تفسير النفسية .

ثم ورد

« من العبقريات الثرة الفياضة » ـ « وربما كانت حماسته وتأججه اكثر من فيضه وتدفقه وعمق نفسه وبعد قرارها اكثر من اتساعها وانفراج مابين اطرافها » ـ « ويدرس اشارة بذاتها ولمحة بعينها ويعي كل ذلك في حافظته ويرسمه في لوح ذاكرته) ـ سامحك الله ايها الكاتب الاديب كيف تجرؤ أن تقول ثرة وفياضة ؟ اليستا مترادفتين وكيف تجيز وضع عمق النفس بجانب بعد القرار أوليسا شيئاً واحداً ؟ وما معنى لمحة بعينها مع اشارة بذاتها ؟ وهل تحتاج أن تقول يعي كل ذلك في حافظته ثم تردفها بقولك ويرسمه في لوح ذاكرته . ولعلك تقول أن هذا من باب تنويع الصور للمعنى الواحد وارتياد التأثير على النفس ولكن هنا من لا يبيح لك هذا الاسلوب ومن يعرف العربية منه ...

ثم ورد

« نفس [illegible] غير مسرفة ولا مبذرة »

« الدائمة الحركة بلاونية ولا انقطاع السائرة أبداً الى الامام مبتلعة كل شي، غير مبقية على شي »

« وكانت هذه النغمة متأصلة في نفسه عريقة في طبعه فقد كان لتأمله قوة الطبيعة وهولها يغمر مشاعره الجميلة بسيل من الحزن والاسى ويثير في نفسه العطف والحب للبشر شركائه في الخطب واخوانه في البلاء »

« أبعث على الكآبه وأكثر اثارة للشجن »

« لاسيما غابة الصنوبر فهي متشابهة متماثلة الشكول »

« والمحيط يهدد ويتوعد »

« التي ترمقه بغير ماعطف ولاحنان »

« في ذلك الموقف تتراجع الامال وتنكص على الاعقاب »

« هنالك يشعر الانسان بعزلته وقلة حوله ونفاد حيلته »

وفي الدنيا التي خلفها يستشعر الراحة والطمأنينة وفيها يستطيع ان يثق بقدرته ويصدق بقوته »

« بادي الكآبة والحزن »

(اخذت الظلال تنمو وتتكاثف وتخيم)

(كيف انتفع من عطاياك ومنحك)

(وهل انا هذا الشيء الخامد الهامد)

(الصمت الملي بالحزن والشجو)

(تهفوبي أشباح خادعة غرارة)

(سرعان ماتنفجر لها ينابيع السعادة وتجيش شآبيبها)

(يتزايد حزنك ويطغى شجنك)

(أردت راحة ونشدت هدوءاً)

لااظن القارىء البصير يحتاج الى تبين ما في هذه الجمل البديعة من المترادفات التي تريد المعنى توضيحا وصبغة القول تلوينا والتي لولاها لا يتم التأثير المطلوب في النفس ولكن قاعدة الاستاذ السكاكيني تحظر كل هذا وتعده (غير عربي) واذا حاججته بكلام السلف الذين ورد في كلامهم مثله قال لك (غير طبيعي اولايستمرئه ذوق هذا العصر) واذا قلت له انهذا اسلوب الروائي الروسي ايفان ترجنيف ولاشك انه اسلوب عصري اوربي لاتقدر ان تقول فيه شيئاً اجابك : الا انهذا ليس مذهبي وجف القلم . ومن هنا تعلم ان صاحبنا ليس في القديم ولا الجديد .



— تطور اللغة في الفاظها واساليبها —

— ٢ —

انتقدت اكثار الامير من المترادفات بدون مسوغ، فرد علي رداً طويلاً استغرق اربعة عشر عموداً من السياسة الغراء دافع به عن مذهبه وحاول ان يثبت انه اسلوب عربي، فرددت عليه بثلاثة اعمدة قلت فيها ان التكرار لا يكون الا لنكتة كزيادة التوكيد نحو (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) ونحو (ان بني هاشم بن المغيرة استأذنوني ان ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن)، وان زيادة التوكيد هذه لا يقتضيها الا المعاني التي يراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها، وان المناشير الى العامة يجب ان تكون بلغة مفهومة يتجنب فيها مثل قوله (الشقص الأوفر) وأن لا دخل للاطناب والايجاز في اكثاره، وانما الاكثار ان تضاعف معانيه ويتبسط فيها ماشاء وشاء المقام لا ان تضاعف الفاظه على غير حاجة اليها ولا فائدة منها. وقد كنت اظن أنه لم يبق مجال للأخذ والرد، واذا بالامير يعود الى الرد علي بكلام استغرق سبعة اعمدة من السياسة الغراء فقط!! واذا بنا لا نزال حيث كنا، كلامي في واد وكلامه في واد آخر. ومن العجب ان يلزمني كلاماً لم أقله اذ قال (تحرير القضية انك انت تنكر المترادف مطلقاً وأنا أقول بل له مواضع) وتحرير القضية اني قلت أن

الرد الثاني على الامير نشر في جريدة السياسة الغراء في العدد ٣٦٩ بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٢٤

للاطناب — ومنه تكرار الكلام بلفظه او بمرادفه — مواطن وشرائط نص عليها البيانيون. وأن الأمير يكثر من المترادفات اقتضاها المقام ام لم يقتضها ، فأنت ترى ان الجدال اصبح عقيماً.

ولكني قلت لاجرد نفسي عن ان اكون المعنيّ برد الأمير ، ولأجعل منها شخصاً ثالثاً ، ولأنظر في رده الأخير باعتبار انهُ كلام الامير لا باعتبار انه رد عليّ ، وللأمير في أن يسعني بحلمه في ما أعلقه على كلامه الرأي الموفق ان شاء الله .

(١) ان الامير اعزه الله وان تكلف الدفاع عن مذهبه في الكتابة جهد مايستطيعه كاتب كبير مثله ، لم يسعه الاان ينكب في رده هذا الاخير عن مذهبه الذي ألفه وألفناه منه ، اذ لم يأت فيه بالمترادفات يكيلها كيلا اقتضاها الحال ام لم يقتضها ، كما فعل في منشوره الى الامة العربية جمعاء في آفاق الأرض ومناكبها ومشارق الشمس ومغاربها الخ وكما فعل في رده الأول . ولا شك ان تنكبهُ عن مذهبه — الذي لم يدافع عنه هذا الدفاع الشديد على غير طائل الا ليقال انه لم يعجز عن الرد — اعتراف منه انه مذهب بالٍ وانهُ ليس طبيعياً ولا عربياً ولا يستمرئه ذوق هذا العصر. ولاشك ان اصحاب المذهب الجديد يرحبون بل يعتزون به ، وأنا الضمين لهم ألا تحدثه نفسه بالعودة اليه ، فلن يقول بعد اليوم كما قال قبله بدون مسوغ « ان الصارخة القومية والنعرة الجنسية نشأت مع الامم وبدأت مع الأقوام منذ الكيان ومنذ الاجتماع البشري وتساكن الانسان مع الانسان » وكما قال « الشقص الأوفر والحظ الأكمل » وكما قال « اذا

اراد الكاتب ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة » وكما قال « للغة الافرنسية أسلوب خاص ونمط قائم بها » الى غير ذلك . . ولا أخال الأمير الا معترفاً لي في قلبه اني قد كسبته ـ ولا اقول غلبته ـ وحسبي ذلك فخرا .

(٢) ان الأمير اعزه الله اعتمد في رده الأول على قواعد اقتبسها من صبح الاعشى، وعلى شواهد اقتبسها من اقوال بعض القدماء على ذمة راويها، فلم تغنه في الدفاع عن مذهبه شيئا ، واما في رده الثاني فقد جعل يستشهد بكتاب العصر ، ولا شك ان هذا دليل آخر على أنه تجدد .

(٣) ان الأمير اعزه الله كان في رده الاول على علمه وفضله متأبياً شديداً لايقيم لأحد وزنا ، وقد غضب لأن يقوم واحد مثلي فينتقده ، واما اليوم فقد ضاق ذرعاً وجعل يتظلم ويستنجد القراء ويستنهض هممهم وينشدهم الله ويرجوهم . واليك الدليل على ذلك من كلامه قال « والله قد اعيتني الحيلة ، ماذا اصنع لاقنع مناظري بالعدول عن هذا المراء » وقال « وانا مع عجزي واعترافي بأنني لاأصلح ان اكون من تلاميذهم » اي من تلاميذ الفصحاء والبلغاء القدماء الذين استشهد بأقوالهم . وقال « هل هذا مبلغك من الانصاف ايها الأديب » وقال « نشدت الله كل قارئ منصف » وقال أنا اعرض هذه الجمل على كل من شم رائحة العربية وارجو منه ان يخبرني » وقال «استنجد القراء الكرام، استنهض هممهم ، بالله عليك ايها القارئ الكريم » الى غير ذلك : بل قد تواضع كثيراً فذكر اسم مناظره ووصفه بالأديب والاستاذ وان لم يخل رده من غمزات كقوله « صاحبنا اصبح صاحب مذهب ولا غرو فلكل زمان ابطال

ولكل دولة رجال » .

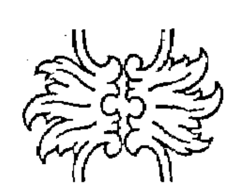
لست ياسيدي الامير صاحب هذا المذهب الجديد في الكتابة ولكنني من دعاته ، فاذا كان لك شيء فدونك المذهب ففنده ولا شأن لك مع اصحابه ودعاته، الا اذا كنت ارستقراطي المذهب في الكتابة كما انك ارستقراطي المذهب في الاجتماع، فلا يجوز في عرفك ان يكون الكتاب من غير الامراء . . . وكقوله « فاربع على ظلعك ولا تركب في غير سرجك » وكأنه أحس بشدة هذه الغمزة ـ وانه لاحساس عالٍ اشكره عليه كثيراً ـ فاستدرك وقال « فلسنا واياك من تلك الطبقة » . وكقوله « والله ماغضبت لنفسي مثلما غضبت لاساطين اللغة وسلاطين البلاغة ان يقوم اليوم واحد مثلي اواعجز مني فيقول ان بلاغتهم صارت قديمة بالية » ولاشك انه يعنيني بقوله « اعجز مني » اني لاعجز كاتب ايها الامير اما وقد تشرفت ان اكون مناظرك فاذا نسبت اليّ العجز في معرض الدفاع عن نفسك لاعن اساطين اللغة وسلاطين البلاغة فتلك كلمة انت ادرى بما يفهم منها في هذا المقام .. ثم الا يجوز ان يقال انك لم تتظلم من شأن القدماء فقلت انهم اساطين اللغة وسلاطين البلاغة الا تعظيما لشأنك لانك تكتب كما يكتبون ، فكأنك قلت عن نفسك انك من اساطين اللغة وسلاطين البلاغة ، وليس قولك في اخر العبارة « ان يقوم واحد مثلي اواعجز مني فينتقدهم » الا من قبيل التمدح في معرض التواضع لانك لم تنتقدهم ، ولقد ذكرني تمدحك هذا في معرض التواضع بذلك الرجل الذي سئل من كان في مجلس كذا فقال كان الامير فلان والوزير فلان والكبير فلان والعبد الفقير يعني نفسه على سبيل التواضع .. وكقوله « ادباء اخر زمان »

كأنه يعني انه خاتمة الادباء فلا يجوز ان يتجرأ احد بعده ان يمسك قلما ..
على انه قد يفهم من ذكر اسمي بعد ان قال « انا استشهدت في ردي السابق بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وابي عبيدة .... الى اربعة عشر اسما » وقد جاء بهم قبسة عجلان انه لم يذكره لا ليغري الكتاب والقراء بي وليعرفوا على من يصبون نقمتهم، فكأنه قال لهم هذا هو الذي ينتقص فضل السلف الصالح فارجموه .

(٤) يقول الامير اعزه الله « اذا كان لهؤلاء مذهب ـ أي للجاحظ وعلي بن ابي طالب فاستعمل هؤلاء للمثنى ـ فلست انت الذي يأتي بنقيضه ..» اذن يجوز ان ينقض ولكن على يد امير مثله لا على يد صعلوك مثلي . ثم ما باله يصرف النقد عنه الى الجاحظ وعلي بن ابي طالب وغيرهما : انا لم اتعرض لاحد من هؤلاء ، أم لعله يريد ان يحتمي بهم كما احتمى باديبين من ادباء العصر .

(٥) مع اقلاع الامير عن مذهبه كما ترى من مقابلة رده الاخير بمنشوره الى العامة ورده السابق، ومع تواضعه في انتحال المذهب الجديد لم يسعه في رده علي الا ان يظهر بمظهر المحافظين فقال « ان الطبيعة البشرية في هذا العصر وفي كل عصر واحدة وان الذي قرره علماء الادب هو المنطق المعقول الملازم للبشرية الذي ليس فيه قديم وجديد لأن العقل ليس فيه قديم وجديد. اذا كان هذا مذهبك ايها الأمير ولا أخال احداً

يقرك عليه ، فقد انقطع الجدال وكفى الله المؤمنين القتال وصار يحق لي ألآن ان اقول « لك مذهبك ولي مذهبي » وانهما لمختلفـان جداً ومن المستحيل ان اقنعك ومن المستحيل ان تقنعني وما احراني ان اقف هنا واترك بقية تعليقاتي على ردك .



العربي شرط لازم

في القديم والجديد

قرأت في جريدة «السياسة» فصلاً عنوانه « القديم والجديد » لأديب لم اعرف اسمه لأنه لم يضع امضاءه تحت ما كتبه . ولا اعلم هل يقصد من ابقائه رسالته غفلاً هكذا انه يتكلم بلسان « السياسة » وكل مايرد فيها بدون امضاء يعتبر منسوباً اليها ام هناك وجه آخر ؟

انا لم اقل في وقت من الأوقات انه لايوجد أسلوب جديد ، وانه يحرم على الناس التجدد وانه ان جاز في شيء فلا يجوز في البيان ، وانما قلت أن لكل لغة اسلوباً اصلياً او نصاباً معروفاً لابد من المحافظة عليه وليس هذا خاصاً بالعرب وحدهم . وان اللغة العربية يمكنها ان تسع من المعاني الجديدة ومن المواضيع العصرية كل مايعن للكاتب ويتوخاه المؤلف مع مراعاة ديباجتها الأصلية التي ان خرج البيان عنها كان عند العرب مستهجناً . وقلت في موضوع التجدد : ان العقل البشري هو بنفسه لايتغير بل المعلومات هي التي تتغير ، فأما الميزان الذي هو الراجع اليه الحكم بأن هذا صحيح وهذا فاسد وان هذا اصح من هذا فاذا كان قابلاً للتغيير فقد بطلت جميع الأحكام . وان رقم ٢ مع رقم ٢ مجموعهما

الرد الثالث للامير نشر في جريدة السياسة الغراء في العدد ٤٢٣ بتاريخ ٦ مارس سنة ١٩٢٤

اربعة ، كان ذلك منذ عشرة آلاف سنة وهو الآن كذلك وسيبقى الى ماشاء الله ولو مضت مائة الف سنة لاتصير الاثنان والاثنان خمسة . وان تناسب الاعضاء او الاقسام هو الجمال او الطلاوة استحسنهما الناس من زمان نوح كما استحسنهما الناس اليوم ولا يمكن ان يصير الحلو مراً والمر حلواً بسبب تغيير الايام وتجدد الأزمان فالخلق استحلوا العسل من زمان سيدنا آدم واستمروا الصاب ولا يزالون يستحلون هذا ويستمرون هذا الى هذه الساعة ولا يجوز ان يغمزوا من اجل ذلك بالجمود والنفور من كل شيء جديد. وذلك ان هناك ذوقاً خلق في فطرة الانسان لايزول الابزوال هذه الفطرة او استئناف فطرة ثانية مباينة للاولى . وليس المراد من ذلك حظر التجدد في الطرق والأساليب والزيادة والنقصان ، ومراعاة المكان والزمان والتلون بصبغة الالوان المختلفة كلا. ان التجدد في هذه العوارض هو مما لم يخل منه زمان ولا قال بمنعه عاقل كما ان هذا لايمنع القول بوجود مبادئ ثابتة راهنة لاتقبل التغيير ولا التبديل .

اذن لست ممن يعترضون على اولئك الذين يريدون « ان يأخذوا بحظهم من الحياة ويريدون ان يفهموا الناس ويفهمهم الناس ويعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون ان يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية » كلا لأني من هؤلاء القوم انفسهم لي ماضٍ يشهد لي بذلك و٣٨ سنة في عالم المطبوعات من اهرام ومؤيد ومقتطف ومقتبس وجرائد ومجلات عديدة عشت فيها مع الجيل الذي انا فيه واجتهدت ان افهم الناس وان يفهمني الناس وجلت في اكثر المواضيع العصرية وطالما البست يدي عند الكتابة قفازاً . ولكنني حرصت على ان يبقى اسلوبي عربياً وان اقتدي بنغمة

السلف في دولة فصاحتهم . وأن لا اقطع علاقتي مع الأجيال الماضية كما يوصي الأديب الذي يكتب في « السياسة » ولو اردت ان أعيد نشر ما سبق لي في معنى حضارة المعاني في بدواة الالفاظ لظهرت لكل قارئ صحة دعواي هذه .

ولست بمن ينكر ان لكل عصر من الاعصر اسلوبا يمتاز عن غيره متلونا بلون ذلك العصر ولا بمن يجحد انه لو تلي الكلام المترجم في زمان بني العباس على اعرابي في الفلاة او على من لم يألف هاتيك الالفاظ والاصطلاحات الجديدة لما فقه منه شيئاً . الا انني اقول ان ذلك النسق لم يفارق نصاب اللغة وأن للنزوع الى الجديد حداً ينبغي ان يقف عنده وهو الحد الذي لا يخرج به عن روح العربية ولا عن طريقة القوم افصح وابلغ ما كانوا .

واما كون كل قديم في الاصل جديداً وكل جديد سيعود قديما فقد سبق الى هذا الشاعر القائل :

ان هذا القديم كان جديداً

وسيبقى هذا الجديد قديماً

ليس في ذلك مرية

ولما كان الله قد من علي بمعرفة بعض اللغات الاوربية ومطالعة ادابها والبحث في كثير مما يبحث فيه الادباء الذين منهم صاحب مقالة القديم والجديد في « السياسة » كان لي الحق بان اقول : ليست لغة من هذه اللغات فوضى يركب الكاتب فيها رأسه كما يشاء ويغير ويبدل في ادابها واساليب التعبير فيها ما يشاء بحجة التجديد والمعاصرة بل ثمة

قواعد وضوابط لا يمكن الكاتب عند هم ان يتعداها وان تعداها قيل لذلك (بربرية) وان شئنا اوردنا الشواهد واختم اسطري هذه بالاعتراض على جملة جاءت في مقالة كاتب السياسة وهي : (ان شكيب ارسلان يرى الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد اليها اكبر الكتاب وارفعهم قدراً منذ كان النثر العربي الى الان . فمن الحق ان نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الاخر (أي الاديب السكاكيني).ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه »

فليسمح لي الاديب في القول ان هذا تحريف للكلم عن مواضعه وان هذا غير جائز خصوصا لمن اراد ان يحرر هذا الخلاف ويقف فيه موقف من يضبط الواقعة . اذ ان شكيب ارسلان لم يقل اصلا ولا في موضع من المواضع ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ملازمة لها ولابد منها . لا . بل شكيب ارسلان كرر عدة مرات من قبل ومن بعد ان كلاًّ من الاطناب والايجاز والمساواة له مقام ان عدل به الى غيره اخل ذلك بالفصاحة . فمن أين جاز لصاحب مقالة السياسة ان يعزو الي ما لم اقله ويجعل غيري هو القائل لما قلته واكدته . ان كان ذلك صدر منه بدون تثبت ولا امعان فليس بجائز الحكم قبل مطالعة نص كل من الفريقين . وان كان بعد المطالعة والتدقيق فتكون المسئلة اعظم ، على كل حال فلم افهم سبب هذا الافتئات عليَّ ولا انا ممن يفتأت بالسهولة عليهم .



(تتمة المقالة)

نتفة

من الشواهد على المترادف

ان هذا ليس بالشيء الذي يحصى حتى يجهد الانسان نفسه في احصائه. بل قلما أخذت يدك كتابا عربيا الا وجدت هذا المذهب فيه مستفيضاً يحاول فيه فصحاء العرب تمكين المعنى في نفس السامع والتأثير على المخاطب بابراز المراد في صور متعددة . وليس هذا هو من قبيل : لاآذن ثم لا آذن ثم لاآذن . بل هو من قبيل لا آذن ولا اسمح ولا ارخص اذا كان المقصود شدة النهي والمبالغة في المنع .

وانما نأخذ على وجه المصادفة بعض الشواهد من الاولين والمحدثين ليزداد القارىء بصيرة .

قال الزمخشري في مقدمة الكشاف :

وماهي الا صفات مبتدىء مبتدع وسمات منشىء مخترع

أنشأ كتابا ساطعاً تبيانه قاطعا برهانه .

أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وابكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصد للاتيان بما يوازيه اويدانيه واحد من فصحائهم ولم ينهض لمقدار أقصر صورة منه ناهض من بلغائهم على انهم كانوا اكثر من حصى البطحاء ، واوفر عدداً من رمال الدهناء ،

إن أتاهم احد بمفخرة اتوه بمفاخر وان رماهم بمأثرة رموه بمآثر ٠

المثبت بالعصمة المؤيد بالحكمة الشادخ الغرة الواضح التحجيل النبي الامي المكتوب في التوراة والانجيل ٠

اعلم ان متن كل علم وعمود كل صناعة ٠

طبقات العلماء فيه متدانية متدانية ، واقدام الصناع فيه متقاربة اومتساوية ان سبق العالم العالم لم يسبقه الا بخطى يسيرة اوتقدم الصانع الصانع لم يتقدمه الا بمسافة قصيرة ٠

ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ومن لطائف معان تدق فيها مباحث الفكر ومن غوامض اسرار محجبة وراء استار لايكشفه عنها من الخاصة الا اوحدهم واخصهم ٠

ثم ان املاء العلوم بما يغمر القرائح وانهضها بما يبهر الا لباب القوارح كثير المطالعات طويل المراجعات ٠

مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها ٠

تمهل في ارتيادهما اونة وتعب في التنقير عنهما ازمنه ٠

يقظان النفس دراكا للمحة وان لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وان خفي مكانها لا كزاً جاسيا ولاغليظا جافيا ٠

قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ٠

كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والاذناب ٠

فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي ٠

مع تراحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه ووفق الله وسدد انتهى :

هذا ما قبسناه من كلام الامام جادالله الزمخشري في مقدمة الكشاف التي لاتزيد على خمس اوست صحائف وهذا مايقول عنه الاديب السكاكيني « غير عربي » او « غير طبيعي » ومتى اعيته الحيلة في ابطال عروبيته او تهجين اساوبه التجأ الى كلة « لايستمرئه ذوق هذا العصر »

ان كان جادالله الزمخشري لايعرف اسلوب العرب في الكتابة فمن العبث ان ننشد هذه الضالة عند آخر وان كان ممن أسميهم انا وحدي بلغاء وفصحاء ولا يسام لهم الاستاذ السكاكيني بالفصاحة والبلاغة فياضيعة العرب والعربية لأن الناس سلموا للزمخشري بأنه من اقطاب العربية ومثلها العليا .

فانظر كيف لايجوز لي انا أن اقول في منشور للجمهور اكثر قرائه من العوام او ممن شدا شيئاً من العربية « منذ وجد السكيان وتساكن الانسان مع الانسان » ويجوز للامام الزمخشري ان يقول للخواص الذين يقرأون تفسيراً مثل الكشاف « مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها .

وانظر كيف يسمج قولي « الحظ الاكمل والشقص الاوفر » ويستحسن قول الحجة القدوة الزمخشري قطع الفيافي وطي المهامه . وتأمل اي كبيرة ارتكبت في قولي « لها أسلوب خاص ونمط قائم بها » ومثل الزمخشري من يقول « يرتب ويؤلف وينظم ويرصف » ولا يرى ذلك علماء البيان من الكبائر . وهلم جرا .

ثم اثناء ماوقع نظري على الكشاف فأخذت منه هذه الجمل عثرت على تاريخ ابن الأثير فأخذت عن مقدمته الجمل الآتية : وليس ابن الاثير

ممن يعد في طبقة الزمخشري ولكنه من علماء العربية ، وبكل الاحوال اعلى طبقة من السكاكيني ولو رأى نفسه غير مايراه غيره .

فأتت متناسقة متتابعة آخذاً بعضها برقاب بعض .

لم اصلح مافيها من غلط وسهو ولا اسقطت منها مايحتاج الى اسقاط ومحو .

والعزم على اتمامه فاتر والعجز ظاهر للاشتغال بما لابد منه لعدم المعين والمظاهر ولهموم توالت ونوائب تتابعت .

طاعته فرض واجب واتباع امره حكم لازب .

من احيا المكارم وكانت امواتاً ، واعادها خلقاً جديداً بعد ان كانت رفاتاً من عم رعيته عدله ونواله ، وشملهم احسانه وافضاله .

اخبار الماضين وحوادث المتقدمين فاذا طالعها فكأنه عاصرهم واذا علمها فكأنه حاضرهم .

ومنهُ مايتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ونقل طريفة من طرائفها .

يصيبه ماأصابهم وينوبه مانابهم الخ .

ويناسب المقام ان نأتي بنبذة ثانية من كلام الكتاب العصريين راجين من حضرة مناظرنا ان لايقول اننا احتمينا بهم لأنه ليس كل من استشهد بكلام احد فقد احتمى بهِ كما لايخفى . وما انا بأرفع من ان ألجأ الى احد من ذوي الفضل ، لكنني لا ارى نفسي محتاجاً الى عضد احد في مناظرتهِ فاستعدي عليه الناس ليرجموه كما زعم فأقول :

لاحت لي مقالة في مقطم ٦ دسمبر الماضي للعلامة الاستاذ احمد زكي

باشا الذي نظن انه قرأ كثيراً ونقب كثيراً فرأيت فيها ما يأتي :

يراجعون اضابيرهم وطواميرهم .

الرجوع الى المصدر الحقيقي والينبوع الأصلي .

هذا الدرب كان عند تخطيطه وانشائه .

مما يدعو الى الاختباط والاختلاط .

وهو الامام الحجة الثقة ابن سعيد الأندلسي

فالمعنى الحتم والمدلول الجزم .

نجتزئ من كلام العلامة المشار اليه بهذا القدر عن ان نتتبع هذا التمط في سائر مقالاته .

وهاك ما أخذناه من كلام الاستاذ طه افندي حسين في بعض مقالاته الأخيرة في « السياسة » فمنها ما جاء في مقالة في ١٦ ربيع الآخر

اشرف وانبل من ان تخدعه عن نفسها .

يضيح بلعن المرأة واستنزال سخطه عليها

تكره ان تخضع لهذه المراقبة الدنيئة وهذا التجسس المرذول .

وزوجه تستعطفه وتترضاه .

اما صاحبه فيشبعه لوما وتأنيبا .

وتسألها عفوها ومغفرتها .

واذا اخته فرحة مبتهجة .

انها لذيذة ممتعة .

ثم من كلام الاستاذ طه حسين ايضاً في مقالة بتاريخ ١١ جمادي الاولى

يضطربان ويترددان في ملعب التمثيل فيستأثران بهواك ويخلبان لبك

وستحب هذا الامر وترغب فيه .

لذتنا بهذه الاية واغتباطنا بها .

الى الحزن والكآبة .

في غير هدنة ولا مهلة وفي غير تكلف ولا تصنع .

من الابتهاج والسرور الى الابتئاس والعبوس .

ويتمون الليل في لهو ولعب (وهذا كما في اية كريمة) .

سمح طلق سهل القياد .

فيعترف بفقره وافلاسه .

وهي فرحة مبتهجة وهو تعس حزين الخ .

وله من مقالة عن وزارة المعارف في ٢٣ جمادى الاولى :

وكما يناقشون ويجادلون .

ولكن في اناة ومهل وعن بصيرة ورشد .

مفيد حقا نافع حقا لا يتغير ولا يزول بمجرد ان يتغير الوزير .

ومعنى هذا واضح جلي الخ .

ومن كلام الاديب العصري « صدقي » الذي كتب على رسالة الغفران ما يأتي بتاريخ ٢١ ربيع الثاني من « السياسة »

وفيه منادح لصرفه على غير السخرية والاستهزاء .

مما نتقارع فيه الحجج ونتساجل البينات

امثلة يتفاقم خطرها وتستفحل شدتها

ويطير الطاووس الذي اكله واحتوته معدته .

استمتاع ملك ايديهم وطوع تصرفهم :

الخيالات التى تقلق ضمائرنا وتروع منهم احلامنا

ولم يستحدث اهل الجفوة والبداوة رقة المنعمين المترفين

لاعلى مشيئة المؤلف وهواه

ابقى على كل منهما شيمته موفورة بادية الميسم معروفة الشارة

فعلى مذهب الادب السكاكيني لايكون محل لقول طه افندي حسين وستحب هذا الأمر وترغب فيه بل كان عليه ان يقول « ستحب هذا الأمر » ولا يتخطى هذه الجملة في هذا المعنى • وبعد ان ذكر الحزن فلا يجوز اردافه بالكآبة و كذلك فأي ضرورة للتصنع بعد قوله التكلف وما هو السائق لقوله السرور بعد قوله الابتهاج وما هي زيادة المعنى في سمح طلق سهل القياد او في فرحة بعد مبتهجة ، ثم لماذا يقول الكاتب العصري صدقي : السخرية ويردفها بالاستهزاء وكيف يؤكل الطاووس ولا تحتويه المعدة ولماذا يقول المترفين بعد قوله المنعمين وهلم جرا •

وممن يصح الاستشهاد به البيان الصادر عن الوفد الفلسطيني وأغلب الظن انهُ بقلم الاستاذ المعترض نفسه لانه كاتب سر اللجنة التنفيذية وقد اطلعت عليه في جريدة (الحقيقة) بتاريخ ٢٩ جمادى الاخرة

فقد جاء فيه : ذلك الماضي الفخم الضخم الذي كانت فيهِ الامة العربية الخ •

وفي اللغة : فخم الشيء فخامة ضخم ؛ فما هو الداعي الى ارداف فخم بضخم اذاً ؟

ثم قال : مختلفة الاهواء والامزجة •

في سبيل شهواته واغراضهِ •

الخمول او الانحطاط او الهرم .

ممتلئة الجسم مكتنزة العضل .

يضعف وغيره يقوى ، يذل وغيره يعتز ، ينحط وغيره يرقى

وتعلن تملقها به واخلاصها له

الحصن الحصين والملجأ المنيع الأمين

فنحن في غنى عن ايضاح ما في هذه العبارات من الترادف بدون نكتة جديدة سوى تقوية المعنى في نفس القارئ . ومن سوء الحظ اننا لم نطلع على شيء من نثر الكاتب المعترض لنحاكمه الى نفسه من نفس كلامه ، وكل ما وقع لدينا من فصوله ومقالاته من بعد ان تعرض لانتقادنا وانتقاد فحول العربية الذين لا نصلح ان نكون من تلاميذهم على استعمال المترادف هو سطور معدودة تجنب فيها جهد الطاقة استعمال المترادف ولكن الاسلوب العربي غلبه كما مر بك من كلامه اذ ليس قوله الملجأ المنيع بعد قوله الحصن الحصين الا من المترادف الصرف ، والذي يضعف يذل والذي يذل ينحط والتعلق والاخلاص مترادفان الخ فقد اتبع المذهب الذي انكره واعاذ العربية منهُ . وزعم الاستاذ في اول مقالة تصدى فيها لهذا البحث أن بعض الكتاب يكيلون المترادف جزافاً ظانين انهم بذلك يحتذون على مثال احمد فارس في الساق على الساق مع أن مذهب احمد فارس في هذا الكتاب هو الأتيان بالمترادف عمدا لتعليم الالفاظ التي هي في معنى واحد وليس ذلك باسلوبه في الكتابة اذا لم يقصد هذا الغرض .

فنحن ان شاء المعترض نأتي له بمترادف يتراكم منه كتاب مستقل

من كلام احمد فارس في كشف المخبا وسر الليال والجاسوس على القاموس ومجاميع الجوائب في المواضع التي لا يقصد بها ذلك الغرض لنفسه • بل يكتب على عادته ويكفي ان نسرد لهُ المقالة التي اولها : من الناس من تخالج صدره من فنون الاقتراح خوالج وتعالج فكره من شجون الاجتراح لواعج الخ •

ومسرور الاستاذ السكاكيني انهُ بفضل ارشاده قد مصح مابي من مرض المترادف وصرت اتجافى عنه كما ظهر من مقالاتي الأخيرة، ولا عجب ان يقوّم الاستاذ أسلة قلمي بعد ان تجاوزت الخمسين لا الأربعين وان اصير عنده تلميذاً ناجحاً ••• فقد ورد «أطلب العلم من المهد الى اللحد ولكنه ان كان الله قد تداركني بالتوبة قبل الرحيل فلا أستطيع الا ان احزن على اولئك الأعلام من جاهليين ومخضرمين واسلاميين ومولدين ومتأخرين ومن خلفاء وصحابة وتابعين وعلماء وكتاب وخطباء ومصنفين كيف جاؤوا في فترة لم يقيض الله لهم فيها من يهديهم طريق العربية الصحيحة وماتوا وهم على اغلاطهم ••••

ولم يقتصر الاستاذ جزاه الله عني خيراً على تثقيف ملكتي في الانشاء بل تجاوز ذلك الى النحو ووقفني على دقائق من هذا الفن لم اكن اعرفها افلا تراه كيف نبهني الى الخطأ الذي اخطأته في اشارتي الى علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ والجاحظ بكلمة (هؤلاء) مع ان هؤلاء هي للجمع لا للمثنى • فمن يعرف هذه الدقيقة الجليلة غيره •• وفوق كل ذي علم عليم •



ـ تطور اللغة في الفاظها واساليبهـا ـ

— ٤ —

مرّ زمن غير قصير على اللغة العربية انصرفت عناية الكثيرين من ادبائها وعلمائها فيه الى الصناعة اللفظية ، من ذلك انهم كانوا يطنبون حيث لايجوز اطناب ، ويكثرون من المترادفات اقتضاها المقام أم لم يقتضها . وقد اشتدت وطأة هذا المرض في زمن الامام الزمخشري صاحب الكشاف وأطواق الذهب ، وابن الاثير صاحب الكامل في التاريخ ، والطنطراني صاحب القصيدة الترجيعية المشهورة ، وعماد الدين الاصبهاني صاحب الفتح القدسي وقد كان عمدة المنشئين في ذلك العصر ، وغيرهم .. وقدسرت عدوى هذا المرض الى عصرنا هذا فلم يسلم منها احد من اكبر كاتب مثل الامير شكيب ارسلان الى كاتب هذه السطور ، ولم تخف وطاة هذا المرض الا من عهد قريب والحمدلله ، فأخذ كثيرون من الكتاب اصحاب المذهب الجديد يميلون الى الايجاز ولا

الرد الثالث على الامير نشر في جريدة السياسة الغراء في العدد ٤٣٤ بتاريخ ١٩ مايس سنة ١٩٢٤

يطنبون الا اذا اقتضى المقام الاطناب ... واذا كان لكل لغة اسلوب اصلي او نصاب معروف لابد من المحافظة عليه كما يقول الامير شكيب في رده الاخير علي ، فالمذهب القديم خروج عن ذلك النصاب المعروف والمذهب الجديد رجوع اليه .. والخلاف بيني وبين الامير ليس على هذا « النصاب المعروف » ولكن على أساوبه ، فهو يقول ان اسلوبه ينطبق على النصاب المعروف في اللغة ، وانا انكر عليه ذلك ، وقد طال الجدال بيني وبينه .

قال ان الاكثار من المترادفات يقتضيه مثل منشوره ذاك الى الامة العربية جمعاء .

اذا صح ذلك فما له يكثر من المترادفات في كل مايكتب سواء كان منشورا الى العامة أم رسالة في الادب .

قال ان الاكثار من المترادفات يقتضيه بعض الاحوال لتقوية المعنى ، ولكن ماله يكثر من هذه المترادفات في كل حال . فلما رأى ورأى العارفون ان اسلوبه لا ينطبق على الأصول التي نص عليها البيانيون ، ترك الاصول ولجأ الى النقل فهو يقول في رده الاخير اذا جاز للامام الحجة القدوة الزمخشري ان يقول « وما هي الاصفات مبتدىء مبتدع وسمات ماشيء مخترع » وان يقول «قطع الفيافي وطي المهامه» الى اخر ما اورد من اقواله . واذا جاز لابن الاثير وقد قال عنه « أنه ليس ممن يعد في طبقة الزمخشري ولكنه من علماء العربية وبكل الاحوال اعلى طبقة من السكاكيني ولو راى نفسه (ى السكاكيني) غير مايراه غيره » مما

ترى منه انه لايزال متألماغاضبا • يقول اذا جاز لابن الاثير هذا ان يقول « طاعته فرض واجب واتباع امره حكم لازب » وان يقول من احيا المكارم وكانت امواتا واعادها خلقا جديداً بعد ان كانت رفاتا ، من عم رعيته عدله ونواله • وشملهم احسانه وافضاله » الى اخرما اورد من اقواله •• بل قال اذا جاز للاستاذ «طه حسين» وللعلامة الاستاذ احمدزكي باشا » وللاديب العصري « صدقي » وللمعترض نفسه ان يقولوا كذا وكذا فلماذا لايجوز لي ان اقول « ان الصارخة القومية والنعرة الجنسية نشأت مع الاقوام وبدأت مع الامم مذالكيان ومنذ الاجتماع البشري وتساكن الانسان مع الانسان » الى غير ذلك مما جاء في منشوره وفي وروده •••

من العجب ان تقول للمريض انت مريض فيقول لك وانت مريض وكل الناس مرضى كأن مرض غيره يعزيه اويثني المرض عنه ••

لاياسيدي لايجوز لك ولا للزمخشري ولا لابن الاثير ولا للجاحظ ولا لابن المقفع ولا للحريري ولا لأحد ان يكثر من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه او بمرادفه وغلطي وغلط غيري لايشفع في غلطك ، ولايفيد العربية ان تحزن على من مات على مذهبك في الكتابة من العلماء الأعلام ، وانما يفيدها ان تراعي اصولها وانت سيد العارفين •

والان اسمح لي ان انتقل الى الكلام عن بقية الفروق بين المذهبين القديم والجديد ويا حبذا لو تتفضل عليّ باعلان رأيك فيها فأكون لك من الشاكرين •

قلت في احدى رسائلي السابقة التي كانت منشأ هذا الخلاف بيني

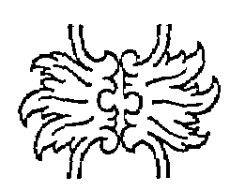
وبين الأمير ، ان اصحاب المذهب القديم يكثرون من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه او بمرادفه ، وان اصحاب المذهب الجديد لايكررون الكلام بلفظه او بمرادفه الا في المواطن التي نص عليها البيانيون تفادياً من الحشو وذهاباً الى الايجاز . ولكن لابدلي قبل ان اتكلم عن بقية الفروق أن أشير هنا الى موضع آخر للايجاز تتمة للحديث هناك .

في الاستعارة قد يكنى عن المستعار اما بجزء منه كقولهم فلان على جناح السفر ، اذا كان متأهباً له تشبيهاً للسفر بالطائر في سرعة المزايلة فانهم لم يذكروا الطائر ولكنهم كنوا عنه بجزء منه وهو الجناح . واما بلازم معنوي نحو نطقت الحال بكذا أي دلت عليه تشبيهاً للحال بالخطيب وللدلالة بالنطق في الابانة فأنهم لم يذكروا الخطيب ولكنهم كنوا عنه بالنطق وهو من لوازمه . وقد يصرح بذكر الجزء مع ذكر اللازم المعنوي فيقال نطق لسان الحال بكذا ،. وقد يصرح بالذات رأساً فيقال نطق خطيب الحال ..

ومع ان استعارة الجزء او التصريح بالذات رأساً ابلغ من استعارة اللازم المعنوي كما يستفاد من اقوال البيانيين ، يتراءى لي ان اصحاب المذهب الجديد يميلون الى استعارة اللازم المعنوي دون استعارة الجزء او التصريح بالذات فيقولون نطقت الحال بكذا مثلاً لا نطق لسان الحال او خطيب الحال .. اي اذا كانت الجملة الواحدة بليغة ولكنها موجزة والثانية ابلغ ولكنها اطول ، آثروا الاولى على الثانية ، وعلى ذلك فانهم

يقولون شحذ فلان رأيه وارهف ذهنه بدلاً من شحذ غرار رأيه وغرار ذهنه او سيفيهما ، وركب الباطل بدلاً من ركب متنه او مطيته ، وطوى الحديث بدلاً من طوى بساطه ، واضرم الشر او اطفأه بدلاً من اضرم ناره او اطفأها ، وزرع الأحقاد او فثأها بدلاً من زرع بذورها وفثأ قدورها ، واستصبح بعلم فلان بدلاً من استصبح بنبراس علمه ، وانبت الشمل بدلاً من انبت حبله الى غير ذلك وهو كثير .. بل هم يستعملون هذه الألفاظ في مثل هذه التراكيب لا على سبيل الاستعارة ولكن على سبيل الترادف فركب الباطل عندهم مرادفة لقولهم اصر عليه ، وطوى الحديث مرادفة لقولهم تركه او أجله والا فأنهم لو قصدوا الاستعارة لاستعاروا مايناسب الحال ويلائم الحياة ، لأن قولهم طوى فلان بساط الحديث كان يوم كان المتحادثون يجلسون على البساط ، واما اليوم فان المتحادثين يجلسون حول موائد حمراء او خضراء مستديرة اومستطيلة ، فاذا اردنا الاستعارة فالأولى ان نقول رفعت مائدة الحديث لاطوي بساطه .. وان قولهم ركب فلان متن الباطن أو مطيته كان يوم كان ركوب المطايا مألوفاً ، واما اليوم فان وسائط النقل كثيرة ، واقلها استعمالاً المطايا ، فاذا اردنا الاستعارة فالاولى ان نقول تسلق فلان سيارة باطله او دراجته لاركب متنه او مطيته .. بل يخيل الي ان اصحاب المذهب الجديد يميلون الى الاقلال من الاستعارات وقد يفضي بهم الأمر اما الى العدول عنها بتاتاً واما الى استعمالها في الشعر دون غيره ، فيكون للشعر لغة ولغيره لغة أخرى ..

اكثر العرب من الاستعارات يوم كانوا أهل خيال واحلام، فكانت لغتهم شعرية لا يستعملونها الا في بيان تأثراتهم فكانوا يتلاعبون بالالفاظ للمبالغة في بيان تلك التأثرات، واما اليوم وهم يحاولون ان يجعلوها لغة العلم والفلسفة والسياسة والاجتماع فلابد ان تتطور فتراعى النسبة بين اللفظ والمعنى. وبعبارة اخرى لابد ان يقصد بها تقرير حقائق بالفاظ محدودة موضوعة لا تقبل الزيادة او النقصان، ولابد ان تتغلب هذه اللغة على لغة الشعر لانها اعم ولغة الشعر اخص، هذا اذا لم تتغير حدود الشعر.



— القديم والجديد —

استأذن القارىء الكريم في العودة الى هذا الموضوع ، فقد بقيت فروق بين المذهبين القديم والجديد لابد من الاشارة اليها استيفاء للحديث.

التطور ناموس عام . فما من عنصر من عناصر الحياة الا خاضع له رضينا ام كرهنا ، ومن لا يؤمن بهذا الناموس فقد جهل كثيراً .

واذا كنت قد اطلعت على ما كتبه اكابر كتاب مصر الاعلام في المدة الاخيرة حول المذهبين القديم والجديد في الكتابة ، فلابد ان تكون قد رأيت ان اللغة خاضعة لهذا الناموس ، وانه ما من سبيل لاخراجها عن حكمه .. الا انهم لم يشيروا الى آثار هذا التطور في اللغة الا عرضاً .

فما هي هذه الآثار ؟

من تلك الآثار ان الناس كانوا يميلون الى الاكثار في الكلام ولو خرجوا الى الثرثرة لاعتبارات اقتضتها عقليتهم ، فصاروا يميلون في هذا العصر الأخير الذي انتشرت فيه روح الاقتصاد الى الايجاز ، كما رأيت في مادار بيني وبين الأمير شكيب ارسلان من الجدال وليس العهد ببعيد .

ومن تلك الآثار ان الناس كانوا يميلون الى التكلف في الكتابة فصاروا يميلون الى الأساليب الطبيعية فيها ، كما كانوا يتكلفون في كل شيء فصاروا طبيعيين في كل شيء .

كان القراء قبل اليوم يجوّدون تجويداً ، او يستعملون لهجة الوعظ يقلدون بها خطباء المساجد او رؤساء الكنائس الاجانب ، او يلزمون نغمة

نشرت في جريدة الشورى في عددها الثامن عشر بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٩٢٥ وفي جريدة السياسة في عددها ٧٢٧ بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٢٥

واحدة لا يكادون يسفلون فيها اويعلون . واما اليوم فانهم يمثلون المعنى تمثيلًا ، وبعبارة أُخرى صاروا يقرأون كما يتحدثون .

كان المغنون قبل اليوم يلزمون في كل حال نغمة واحدة سواء كان الموقف موقف حب ام حماسة ام بكاء . واما اليوم فان لكل موقف نغمة تناسبه .

يقال ان عبده الحمولي الموسيقي المشهور طاف ليلة مع بعض اصدقائه على مجالس الطرب ، فما كان يجلس قليلًا في احد تلك المجالس الا قال لاصدقائه « قوموا بنا فان هذا فقهي » اي أن المغنين في ذلك العصر كانوا يجوّدون لا يغنون .

كان الخطباء قبل اليوم يقلد بعضهم بعضاً في اشاراتهم ، وكانوا فيها متكلفين ، يشير الخطيب بيده الى الامام اوالى الوراء وليس في كلامه ما يقتضي تلك الاشارة ، واما اليوم فان الاشارات جزء من اللغة تقوي المعنى اوتوضحه اوتستدعي الانتباه اليه .

كان الرقص قبل اليوم تفككاً ، فكل حركةٍ فيه كانت رقصاً ، واما اليوم فان الرقص لغة أُخرى تمثل معاني النفس تمثيلًا ، وقد يمثلون بالرقص مالا يمثله كلام . قد يكون في الرقص خشوع ، وقد يكون فيه حماسة ، وقد يكون فيه حب ، وقد يكون فيه بكاء ، وقد يكون فيه وعظ .

فانت ترى من هذا كله ان الناس صاروا يميلون في كل مظاهر الحياة الى الاساليب الطبيعية ، وليس شيء اثقل على الروح في هذا العصر من التكلف .

فالاسلوب الطبيعي للكتابة ان يكتب الانسان كما يفكر وكما يتحدث ، فمن حاول ان يكتب مالا يفكر فيه اويتحدث به هو اوغيره ،

ومالايلائم الحياة في شيء ، فقد تكلف . قد يكون تفكيره اوحديثه شيئاً وما يكتبه شيئاً آخر . قد يترجم حديثه نفسه واما كتابته فلا .

اذا اراد الكاتب من اصحاب المذهب القديم ان يكتب فلا يستوحي عقله او قلبه ، ولايستعمل من الالفاظ ما يؤدي مراده ويناسب المقام ويفهمه الناس . ولكنه يستوحي القدماء ، يفتش عما قالوه في موضوعه في كل مظنة فيستعير معانيهم والفاظهم ويدّعيها لنفسه . لاتقرأ شيئاً لهؤلاء الكتاب الا احسست ان كل لفظة فيه ليست لهم .

كان القدماء يستحسنون «التضمين» وهو ان يأخذ الشاعر اوالكاتب شطراً من شعر غيره بلفظه ومعناه ،

و «الاستعانة» وهي ان يأخذ بيتاً كاملاً ،

و «الايداع» وهو ان يصرف معنى ما يأخذه من اقوال غيره عن مراد صاحبه ، كما فعل الشيخ صلاح الدين الصفدي والشيخ جمال الدين بن نباته باعجاز معلقة امرئ القيس متعا تبين ، فقال الاول في اول قصيدته .

أفي كل يوم منك عتب يسوءني «كجلمود صخر حطه السيل من عل»

فاجابه الثاني بقصيدة قال في اولها :

فطمت ولائي ثم اقبلت عاتباً «افاطم مهلاً بعض هذا التدلل»

و «الاقتباس» وهو ان يضمن الكاتب او الشاعر كلامه شيئاً من القرآن اوالحديث .

و «التلميح» وهو ان يشار في الكلام الى قصة معلومة او بيت مشهور اومثل سائر .

و «العقد» وهو ان يأخذ الشاعر كلاماً منثوراً فينظمه بان يزيد

عليه اوينقص منه حتى ينطبق على وزن الشعر .

وأما اليوم فان اصحاب المذهب الجديد لا يميلون الى شيء من هذا ، فانك لاتجد في ما يكتبونه آية او حديثاً اومثلاً اوشطراً او جملة من بيت بل لاتجد كلمة ليست لهم او لا يعنونها .

اذا لم يكن بدٌّ للكاتب اوالشاعر ان يستعير معاني غيره ويستعين بالفاظه فعلى ألاّ يسرف في ذلك ، وإلا كان كلامه صدى مردداً ، هذا اذا لم نعده مسروقاً ، وعلى ان يكون مايستعيره من المعاني وما يستعين به من الالفاظ مما يعنيه ، ويقتضيه الحال الذي هو فيهِ ، وإلا فقد يكون مايعنيه اوما يقتضيه الحال شيئاً وما يكتبه شيئاً آخر وهذا هو التكلف بل الجمود بل النفاق .

اذا قرأ التلميذ اليوم فتصنع في لهجته فان الاستاذ يكلفه ان يطوي كتابه وان يتحدث بما قرأ ، والغالب انه اذا تحدث يرجع الى لهجته الطبيعية ، ثم يكلفه ان يقرأ باللهجة التي تحدث بها .

وما احرى الكاتب اليوم اذا خشي ان تغلب عليه الكلفة ان يتحدث بما يكتب لنفسه اولغيره اولاً ثم ان يكتب كما تحدث .

ومن احب ان يرى كيف تكون الكتابة حديثاً على سوقه الطبيعي فليقرأ مايكتبه الدكتور منصور فهمي ، والدكتور طه حسين ، والاستاذ مصطفى عبدالرازق ، والاستاذ سلامه موسى ، فاذا قرأهم فكأنه سمعهم يتحدثون .

بل ان اصحاب المذهب القديم انفسهم على ولوعهم بالتكلف اذا ردوا على منتقديهم كانت كتابتهم ابعد عن الكلفة واقرب الى الطبع ، كأن الغضب يخرجهم عن الكلفة ويردهم الى حالتهم الطبيعية .

كان يجب على رأي هؤلاء المتكلفين ان يكون هناك كتاب في كل ما يعرض للانسان من الشؤون وما يتمثل له من الخواطر ، على حد تلك الكتب الموضوعة في الرسائل التى تبدأ كل رسالة فيها بقولهم « غب سؤال شريف خاطركم والاستفحاص عن غالي سلامتكم » فاذا احتاج الكاتب منهم ان يشكر او يهنئ او يعزي او يعتب او يبث شوقه مثلاً ، فما عليه الا ان ينسخ مايريد من ذلك الكتاب بلفظه ومعناه ويوقعه باسمه ..

وارجو القارئ الكريم ان لا يكلفني ان استشهد بأقوال احد فاني لا احب ان افتح علي باب الخصومة .

***

ومن آثار هذا التطور ان اصحاب المذهب القديم ينزعون الى الارستوقراطية في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الديموقراطية ، فصار الكتاب فيه يكتبون لا للخاصة ، ولا لتسلية الامراء والكبراء اوالتملق لهم او السخر منهم ، ولا للتفصُّح اوالتمدُّح ، بل لعامة الناس فى ما ينفعهم في هذه الحياة ..

من تلك الارستوقراطية ان الكاتب منهم لايقول في مايكتب « انا قلت » « انا رأيت » بصيغة المفرد ، بل « نحن قلنا » « نحن رأينا » بصيغة الجمع ، تعظيماً لشأنه . ولولا شيء من الحياء لابتدأوا كلامهم بالثناء على انفسهم والاشادة بفضلهم ، وختموه بقولهم « من يستطيع ان يأتي بمثل هذا » ؟ — على الطريقة البحترية — تعزيزاً لمكانتهم عند العامة . وما ادرانا انهم يكافون غيرهم ان يقرظوهم ويعظموهم .

ومنها انهم يبالغون في التأنق وتخير الالفاظ ولو خرجوا الى الكلفة بل السخافة ، وقد قسموا الكلام الى رصين و مبتذل او سمين

وهزيل . وما الرصين السمين في عرفهم الا الغريب المهجور ، وما المبتذل الهزيل الا المفهوم المأنوس . ولا تشيع لفظة على السنة الناس الا اصبحت عندهم مبتذلة هزيلة لايليق بأمثالهم ان يتسفلوا الى استعمالها ، وربما امتنعوا عن الكتابة بتاتاً اذا اضطروا ان يكتبوا بلغة الناس . (راجع صفحة ٧٩)

لاننكر التأنق ، فانه فطرة في بعض الناس ، فقد ترى زيداً على غناه ووجاهته يخرج من بيته في الصباح بدون ان يغسل وجهه ، على حين ترى جاره على فقره وخموله لايخرج من بيته الا نظيف الجسم والثوب حسن الهندام مسرح الشعر . والتأنق دليل علو في النفس وسلامة في الذوق وهو مدعاة الى الرقي ، ولكن على ان لا يظهر المتأنق انهُ متأنق . وبعبارة أُخرى ان لايتأنق لأجل التأنق ، والا كان دليلًا على سخافة العقل وفساد الذوق ، وكان مدعاة الى التدني

كما لاننكر الابتذال ، ولكن الابتذال يكون في الجملة لا في اللفظة فقولهم «فلان يصطاد في الماء العكر» من الجمل المبتذلة التي لاكتها الافواه وملتها الأسماع . واما كل لفظة في هذه الجملة فلا ابتذال فيها ، والا فكل الفاظ اللغة المستعمله مبتذلة.

يقول هؤلاء الكتاب الأرستوقراطيون انهم يكتبون للخاصة لا للعامة ، ومنهم من يبالغ في ارستوقراطيته فلاتفهمه العامة ولاالخاصة.

وقف خطيب في حفلة اقيمت لتكريم شاعر كبير ، وبعد ان قرأ كلمته « المحبرة » وقد جاء فيها بالغريب وغريب الغريب ، التفت الى الشاعر وكان جالساً الى جانبه وقال له : « اظن انه لم يفهم كلامي الا انت وانا » فقال له الشاعر : « ولا انا ياسيدي ».

وتراهم اذا كتبوا اضطروا الى تفسير الفاظهم في ذيل كل صفحة ، وقد يكون التفسير اطول من المتن واغمض .

اذا كنتم ايها السادة الاجلاء انما تكتبون للخاصة ، فلاحاجة الى هذا التفسير ، بل لاحاجة الى كل ماتكتبون . واذا كنتم تكتبون للعـامة فكافوا خاطركم غير مأمورين واكتبوا بلغة الناس ولكم الأجر .

نفهم ان الكاتب قد يضطر الى كلمة غريبة لايجدلها مرادفاً في اللغة المألوفة فيفسرها ، اما ان يترك الكاتب الالفاظ المأنوسة والتراكيب السلسة الى الفاظ مهجورة باليةوتراكيب معقدةغامضة على غير اضطرار ، ليدهش الناس ويحملهم على الاعجاب به واستعظام قدره والثناء عليه ، فتلك سخافة ليس بعدها سخافة .

ثم لو فرضنا ان هذه الالفاظ الغريبة التي يسميها الاستوقراطيون « جزلة فخمة » وان تلك التراكيب التي يسمونها « انيقة الديباجة » اصبحت شائعة فماذا يعملون ؟ هل يخترعون الفاظاً وتراكيب جديدة . ام يغضبون كما غضب الصاحب بن عباد على صاحب كتاب الالفاظ فقال : لو ادركت عبدالرحمن بن عيسى مصنف كتاب الالفاظ لأمرت بقطع يده ، فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربية الجزلة في اوراق يسيرة فاضاعها في افواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة .

لم تغضب ايها الصاحب بن عباد على عبدالرحمن بن عيسى لانه رفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة ، وانما غضبت لانه حاول ان يجعل من صبيان المكاتب وعامة المتأدبين

ارستوقراطيين مثلك ، وليس شيء انقل واشد على الارستوقراطي من ان يدانيه احد من العامة .

لقد احسن عبدالرحمن بن عيسى في تقريب منال اللغة من المتأدبين فهو يستحق على ذلك الشكر الجزيل ، ولكنه اساء من حيث لايدري . اذ قيد اقلام الكتاب بعده بتلك الالفاظ التي جمعها فلم يحيدوا عنها . واذا استعمل احد غير الفاظه قالوا هذا ليس عربيا .

فكان كتابه هذا اول عهد اللغة العربية بالجمود والتكلف .

ذيل

جاء في الصحفة ٥٠ يقال انهم في بعض مدن اوربا في الاجيال الوسطى بنوا كنيسة على طراز شرقي الخ .

وقد اطلع على قولي هذا صديقي الاستاذ عادل افندي جبر فتفضل بالكلمة الآتية :

ان دار البطريركية اللاتينية في مدينة الجزائر لاتزال فيها كتابات ونقوش اسلامية كثيرة تزين جدران قاعاتها الفسيحة مثل : محمد ، ابو بكر ، عمر ، عثمان ، علي الخ و « توكلت على الله » المنقوشة بالجص مكررة على اعلى تلك الجدران .

وكذا كنيسة (مارتورانا) Martorana في مدينة (بلرمه) عاصمة صقلية ، فان اعمدتها زينت بالنقوش العربية والآيات القرآنية ، فضلاً عن الكنائس المتعددة التي بنيت في اسبانيا بعد اجلاء المسلمين عنها فان جلها شيد وزين على مثال المساجد والجوامع بالنقوش والكتابات العربية .

فهرست

صحيفة

الخطأ الصواب

الخطأ	الصواب	صحيفة	سطر
الطراورة	الطراوة	٩	٦
او	ام	١١	١٣
او	ام	١١	١٤
المنقوص	المقصور	١٢	٦
المنقوص	المقصور	١٣	١٠
المنقوص	المقصور	١٣	١٣
عد	عدد	٢٠	٦
وعوده	وعدده	٢٢	٢
فللة	فلله	٢٣	٤
فماذا	فلماذا	٢٤	١٠
القسين	القسمين	٤٣	١٦
أؤمّ اومّ	أؤم واوم	٤٧	١٤
اما	أن	٤٨	٢
وهيات	وهيهات	٨١	٢
هذة	هذه	٨٤	١
فليقط	فيلقط	٨٨	٨
ازال الشي احلال	احلال الشي	٨٩	٢
وروده	ردوده	١٦٥	١٠